

كتب قداسة البابا شنودة الثالث



www.st-mgalx.com

الكلية الإكليريكية بالأندلس
تقدم

دروس مَرْوِجِيَّة

من

الميلاد

والغطائين

مِنْ مُحَاضَرَاتِ نَيْافَةِ الْأَنْبِيَاءِ شُؤْدَةً



بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد

قدمنا لكم فى العام الأسبق
أيها الاخوة الأحباء « تأملات فى
الميلاد » تشمل محاضرة طويلة عن
اخلاء الرب لذاته ومحاضرات أخرى
عن « ملء الزمان » ، ولقب
« عمانوئيل » أى الله معنا ، وأسئلة
عن الميلاد معها اجابات القديسين
عنها .



ونقدم لكم فى هذه السنة
محاضرات أخرى ألقاها نيافة الأنبا
شنوده بالقاعة المرقسية بالأنبا رويس سنة ١٩٦٦ عن أسباب
حلول الرب بيننا ، ومصالحة السماء والأرض ، ودروس روحية
فى حياة العذراء وحياة القديس يوحنا المعمدان ...

ونرجو أن يمنح الرب معونة ووقتاً لمتابعة نشر باقى
المحاضرات . وتحت الطبع حالياً كتابان من الحجم الكبير أحدهما
هو كتاب « حياة التوبة والنقاوة » والآخر هو كتاب « تأملات
فى سفر نشيد الاناشيد » .

وكل عام وجميعكم بخير . صلوا عنا .

لجنة اصدقاء الكلية الاكليريكية



صاحب القداسة والفبطة البابا كيرلس السادس
بابا الاسكندرية وبطربوك الكرازة المرقسية

فهرست

صفحة

٥	الفصل الأول : لماذا حل الرب بيننا
٧	الفداء هو السبب الأساسى للتجسد
١٤	أتى المسيح لينوب عن البشرية
١٧	أتى ليقدّم لنا الصورة الالهية
١٩	درس عجيب فى التواضع
٢٢	أسباب أخرى لمجيئه
٣١	الفصل الثانى : مصالحة السماء والأرض
٣٤	تباشير الصلح
٤٣	الله يصالح البشرية
٤٦	الكبير يسعى لمصالحة الصغير
٥١	الفصل الثالث : دروس من حياة العذراء
٥٢	اتضاع العذراء
٥٥	مقابلة العذراء لالصابات
٥٩	سمو مكانة العذراء
٦٣	صمت العذراء وتأملها
٦٩	الفصل الرابع : دروس من حياة المجدلان
٧٠	أعظم من ولدت النساء

الفصل الأول

لماذا هلَّ الربُّ بيننا؟

لماذا حل المسيح بيننا :

وتنح نحتفل بميلاد المسيح من العذراء ، لعلنا نتساءل
فيما بيننا : ما هي الأسباب التي دعت رب المجد أن يتخذ
جسدا ويحل بيننا ، ويصير في الهيئة كإنسان ، ويولد من
امرأة كبنى البشر ؟

لا شك أن الفداء هو السبب الأساسي للتجسد . جاء
الرب الى العالم ليخلص الخطاة ، جاء ليفديهم ، جاء ليموت
ولي بذل نفسه عن كثيرين . هذا هو السبب الرئيسي الذي لو
اكتفى المسيح به ولم يعمل غيره ، لكان كافيا لتبرير تجسده .
جاء المسيح ليوفى العدل الالهي ، وليصالح السماء
والأرض .

ويمكننا ان نقول ايضا - الى جوار عمل الفداء والمصالحة -
ان السيد المسيح قد جاء لينوب عن البشرية . وكما ناب عنها
في الموت ، ينوب عنها ايضا في كل ما هو مطلوب منها أن
تعمله . ان الانسان قد قصر في كل علاقاته مع الله ، فجاء
« ابن الانسان » لينوب عن الانسان كله في ارضاء الله .

وفي فترة تجسده امكن للرب ان يقدم للبشرية الصورة
المثالية لما ينبغي أن يكون عليه الانسان كصورة لله ومثاله .

قدم القدوة ، والمثال العملي • حتى أن القديس اثناسيوس الرسول قال انه لما فسدت هذه الصورة التي خلق الله بها الانسان ، نزل الله ليقدم لهم الصورة الالهية الاصيلة ...

وأيضاً لما أخطأ الناس في تفسير الشريعة الالهية ، وقدموها للناس حسب مفهومهم الخاطئ ، ومزجوا بها تعاليمهم الخاصة وتقاليدهم ، جاء الرب ليقدم للبشرية الشريعة الالهية كما ارادها الرب ، نقية من الأخطاء البشرية في الفهم والتفسير ...

وسنحاول الآن أن نتناول هذه الأسباب جميعها، ونتحدث عنها بمزيد من التفصيل ، ونرى ما يمكن أن نستفيد من دروس روحية لحياتنا خلال هذا الشرح .

الفداء هو السبب الأساسي للتجسد

لقد أخطأ الانسان الأول ، وكانت خطيته ضد الله نفسه : فهو قد عصى الله وخالف وصيته • وهو أيضاً أراد أن يكبر وأن يصير مثل الله عارفاً الخير والشر (تك ٣ : ٥) • وفي غمرة هذا الاغراء نرى أن الانسان لم يصدق الله الذي قال له عن شجرة معرفة الخير والشر « يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) • وعلى العكس من هذا صدق الحية التي قالت « لن تموتاً » • وبعد الأكل من الشجرة نرى أن الانسان قد بدأ يفقد ايمانه في وجود الله في كل مكان وقدرته على رؤية

كل مخفى ، وظن أنه ان اختبأ وسط الشجر يستطيع أن يهرب من رؤية الله له . وفى محاسبة الله للإنسان بعد الخطية ، نرى الإنسان يتكلم بأسلوب لا يليق ، اذ يحمل الله جزءا من مسئولية خطيته فيقول له « المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى » (تك ٣ : ١٢)

انها مجموعة أخطاء موجهة ضد الله : عصيان الله ، ومنافسة الله فى معرفته ، وعدم تصديق الله فى وعيده ، وعدم الايمان بقدرة الله ، وعدم التأدب فى الحديث مع الله .

أخطأ الإنسان ضد الله ، والله غير محدود ، لذلك صارت خطيته غير محدودة . والخطية غير المحدودة ، عقوبتها غير محدودة . وان قدمت عنها كفارة ، ينبغى ان تكون كفارة غير محدودة ، ولا يوجد غير محدود الا الله . لذلك كان ينبغى ان يقوم الله نفسه بعمل الكفارة ...

هذا هو ملخص المشكلة كلها فى ايجاز ...

لقد أخطأ الإنسان ، وأجرة الخطية هى الموت (روا:٢٣) . وكان لابد أن يموت الإنسان ، وبخاصة لأن الله كان قد أذره بهذا الموت من قبل أن يتعدى الوصية ، اذ قال له « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » . وهكذا استحق حكم الموت ، وكان لابد أن يموت .

كان موت الإنسان هو الوفاء الوحيد لعذل الله . وان لم يمت الإنسان ، لا يكون الله عادلا ، ولا يكون الله صادقا فى إنذاره السابق ...

هذه النظرية يشرحها القديس اثناسيوس الرسولي باستفاضة في كتابه « تجسد الكلمة » . واذ يشرح لزوم موت الانسان ، يشرح من الناحية المضادة للمشاكل التي تقف ضد موت الانسان . فماذا كانت تلك المشاكل ؟

كان موت الانسان ضد رحمة الله ، وبخاصة لأن الانسان قد سقط ضحية الشيطان الذي كان أكثر منه حيلة ومكرًا!! وكان موت الانسان ضد كرامة الله ، اذ انه خلق على صورة الله ومثاله ، فكيف تتمزق صورة الله هكذا ؟!

وكان موت الانسان ضد قوة الله ، كان الله قد خلق خليفة ولم يستطع ان يحميها من شر الشيطان ! وهكذا يكون الشيطان قد انتصر في المعركة !!

وكان موت الانسان ضد حكمة الله في خلقه للبشر . وكما يقول القديس اثناسيوس الرسولي انه كان خيرا للانسان لو لم يخلق ، من ان يخلق ليلقى هذا المصير !!

واخيرا كان موت الانسان ضد ذكاء الله . اذ كيف توجد المشكلة ولا يستطيع عقل الله ان يوجد لها حلا !!

اذن كان موت الانسان ضد رحمة الله ، وضد كرامة الله ، وضد قوة الله ، وضد حكمته وذكائه . وكان لابد لحكمة الله ان تتدخل لحل هذا الاشكال ...

وهكذا تدخل اقنوم الابن لحل الاشكال • والابن كما يقول
بولس الرسول هو « حكمة الله وقوة الله » (١ كو ١ : ٢٤) ،
ويسميه سفر الامثال « الحكمة » (ام ٩ : ١)
والآن نسأل : كيف أمكن لحكمة الله حل هذا الاشكال ؟

كان الحل هو الكفارة والعداء ، لابد أن يموت أحد عن
الانسان ، فيفديه ، لانقاذ • ولم يكن يصلح لهذا الفداء أى
كائن آخر ، غير لانسان ذاته ، لا ملاك ، ولا حيوان • ولا
روح ، ولا أية خليفة أخرى ... فلماذا ؟

كان لابد ان يموت الانسان لسببين :

اولا : لان كل مخلوق محدود ، لا يمكن أن يقدم كفارة
غير محدودة ، توفى العقوبة غير المحدودة ، للخطية غير
المحدودة •

ثانيا : لان الحكم صدر ضد الانسان ، فيجب أن يموت
الانسان •

وكان الحل الوحيد هو التجسد : أن ينزل الله الى عالمنا
مولودا من امرأة ، فهو من حيث لاهوته غير محدود كاله ،
يمكنه أن يقدم كفارة غير محدودة ، تكفى لمغفرة جميع الخطايا
لجميع الناس ، فى جميع الأجيال • وهو من حيث ناسوته ،
يمكنه أن ينوب عن الانسان المحكوم عليه فى دفع ثمن الخطية •
من أجل هذا السبب كان السيد المسيح نعمة أن يسمى
بفسه « ابن الانسان » فى كثير من المجالات ...

هذا اذن هو السبب الاساسى لولادة المسيح من العذراء •
 جاء لحمل خطيتنا ، وبموت عنها ، لينقذنا من عقوبتها ...
 ان عرفنا هذه الحقيقة ، فما هى الدروس الروحية التى
 يمكن أن نتعلمها منها فى حياتنا ؟ هذا ما نود الآن أن نتأمل
 فيه ...



تأمل أيها الاخ المبارك فى أن كل خطية ترتكبها هى موجهة
 ضد الله ذاته ، ولا تختلف فى دينونتها عن خطية آدم وحواء •
 هى مثل خطيئتهما غير محدودة ، لأنها موجهة ضد الله غير
 المحدود • وهكذا فإن عقوبتها غير محدودة ، ولا تغفر الا
 بكفارة غير محدودة ...

كل خطية ترتكبها هى عصيان لله • هى نوع من التحدى
 لله وعدم المبالاة بوصاياه ، بل هى ثورة عليه وانضمام لحصنه
 الشيطان ... لذلك فكل خطية ترتكبها تحمل معنى عدم
 محبة لله ، لأنه يقول : من يحبنى يحفظ وصاياى

(يو ١٤ : ١٥)

لذلك عندما أخطأ داود وزنى وقتل ، لم يقل أخطأت
 ضد اوريا الحسى وزوجته ، بل قال لله « لك وحدك أخطأت ،
 والشر قدامك صنعت » (مر ٥٠ : ٤) ... حقا ان الخطية
 خاطئة جدا كما يقول الكتاب (رو ٧ : ١٣) •

وإن خطيئة ترتكبها يحملها المسيح ، لأنه هو « حمل
الله الذي رفع خطيئة العالم كله » (يو ١ : ٢٩) « كلنا
كفتم ضللنا ، ملنا كل واحد الى طريقه » والرب قد وضع
عليه اثم جميعنا » (أش ٥٣ : ٦)

انك يا أخى ربما تستسهل الخطيئة ، وتستسهل غفرانها،
وتظن أنه بمجرد الاعتراف بها تنتهى • ولا يتناول تفكيرك
كيف تغفر هذه الخطيئة بالاعتراف • لذلك تجد الأمر سهلاً
ولا تشعر بفداحة ما تفعله !!!

خطيئتك أيها الأخ لا تغفر الا بدم المسيح ، لأنه « بدون
دمك دم لا يحدث معفرة » (عب ٩ : ٢٢) • فما هو موقف
الكاهن من الغفران اذن ؟ هل مجرد قراءة التحليل أو عبارة
« الله بحالملك » هي كل شيء ؟! كلا بلا شك • فمجرد هذه
الكلمة وحدها لا تكفى •

عندما يعطيك الكاهن المغفرة، اما يقوم بعملية تحويل •
بحول الخطيئة من حسابك الى حساب المسيح • ينقل الخطيئة
من على رأسك الى رأس الحمل الذى يحمل خطايا العالم كله •
وحينئذ يمحوها المسيح بدمه •

بل اتحرراً وأدرك ان المسيح نفسه عندما كان يقول
لإنسان « مغفورة لك خطاياك » لم يكن هذه العبارة وحدها
تكفى بدون دم الرب • اما قول السيد الرب لإنسان « مغفورة
لك خطاياك » معناها « اننى قبلت أن أموت عن هذه الخطايا،

وقبالت أن أمحوها بدمي . لذلك اغسرها مغفورة ، لأنها
مغفورة في دمي . لا . لو كانت مجرد عبارة المعصية تكفي
لمادا إذن كان المجدد ، ولماذا إذن كان الصلب والعداء ؟

بسبب خطيتك ابها الأخ ، أخلى الرب ذاته ، وأخذ
شكل العبد ، وولد كإنسان . واحتمل كل ضعف البشرية .
من أجل خطيتك صار طفلا . ومن أجلها هرب من هيرودس
إلى مصر ، ومن أجلها جرب من الشيطان ، ومن أجلها
اضطهده اليهود وأعنى وشتم وبصق عليه وضرب وصلب
ومات . إن عرمت كل هذا ، فكيف تحتمل مشاعرك أن
تخطئ ؟ ١٩

نحب أن نعلم جيدا أن كل خطية لابد أن تقف أمام عدل
الله ، لكي نعطي حسنا أمامه . ومخيف هو الوقوع في يدي
الله الحي ، (عب ١٠ : ٣١)

لذلك في يوم ميلاد المسيح ، نأمل في محبته لك ، وفي
سمعه لخلاصك ، وكيف أنه من أجلك جاء .

حما لقد جاء المسيح ليخلص العالم (يو ٣ : ١٧) . جاء
لبطام وبخلص ما قد هلك . . . فهل كان هذا هو كل شيء ؟
كلا ، فإنا نلاحظ شيئا آخر وهو أنه قد جاء ليصوب عن
البشرية .

أَتَى الْمَسِيحُ لِيُنْقِذَ عَنْ الْبَشَرِ

انه ناب عنا في دفع ثمن الخطية ، في الموت ، فمات عنا .
ولكن هذا لم يكن هو الشيء الوحيد الذي ناب عنا فيه . بل
انه ناب عنا في كل عمل صالح ، في تكميل الناموس كله ...
فاختتن وهو غير محتاج الى الختان ، وصام وهو غير محتاج
الى الصوم ، واعتمد وهو غير محتاج الى العماد ، وهكذا دواليك .

ولعل نيابة الرب عن الانسان هي التي جعلته يسمى
نفسه في احيان كثيرة « ابن الانسان » ، مشيرا الى انه جاء نائبا
عن الانسان او نائبا عن البشرية فهو ليس ابن فلان من
الناس ، وانما هو ابن الانسان عموما . وقد ناب عن الانسان
في موته وفي حياته وفي كل ما كان مطلوبا منه . . . »

● ولنبدا اولاً بموضوع العماد ، كمثال ...

ذهب السيد المسيح الى يوحنا ليعتمد منه . ولكنه
بلا شك لم يكن محتاجا مطلقا الى العماد . معمودية يوحنا
كانت للتوبة ، والتوبة عمل يقوم به الخطاة وليس الأبرار .
ويسمى المسيح القدوس البار ، الذي هو وحده بلا خطية ،
لم يكن محتاجا الى التوبة ، وبالتالي لم يكن محتاجا الى معمودية
يوحنا .

كان يوحنا صوتا صارخا فى البرية ينادى « توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . « اصنعوا ثمارا تليق بالتوبة » . كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار . « وهذا الصوت لم يكن بأى حال موجهها الى السيد المسيح ، الذى اعترف له يوحنا قائلا « أنا محتاج أن اعتمد منك » (متى ٣ : ١٤) . ويوحنا كان يأتى اليه الناس ليعتمدوا « معترفين بخطاياهم » (متى ٣ : ٦) والسيد المسيح لم تكن له خطية يعترف بها ...

فما دام لم يكن محتاجا الى التوبة ، ولا الى المعمودية ، فلماذا ذهب الى يوحنا ؟ ولماذا اعتمد ؟

لقد فعل ذلك « ليكمل كل بر » ، لينوب عنا فى اطاعة الناموس ، ان البشرية فشلت فى ارضاء الله الأب ، فجاء الابن يرضيه . يريه « ابن الانسان » وقد وقف كاملا أمامه ... تناب عنا فى تقديم هذه التوبة ... كما سينوب عنا فى آخر الزمان فى تقديم خضوع البشرية للأب . وهكذا يقول الرسول « ومتى اخضع له الكل ، حينئذ الابن أيضا سيخضع للذى اخضع له الكل » (١ كور ١٥ : ٢٨) .

ان الخطية كانت لها نتيجتان : هلاك الانسان ، واغضاب قلب الله . وجاء السيد المسيح ليصلح الأمرين معا : جاء ليخلص الانسان الجاهل ، اذ تاب عنا فى الموت وفى دفع

ثمن الخطية • وجاء ليصالح قلب الله الغاضب بأن يقدم له
باموتنا كاملا يرضيه ، وهكذا ناب عما في تكميل الباموس
وفي كل عمل صالح • فام بالعملين معا : أرضى قلب الله ،
بحياته الظاهرة ، وأبق حياة الانسان ، بموته الكفارى •

● وكما ناب المسيح عن البشرية فى التوبة والعماد
وتكميل الباموس ، ناب عنها أيضا فى الصوم • لم يستطع
الانسان أن يكبح جماح جسده ، فأكل من طعام نهى الله عنه ،
فسقط • وجاء المسيح ليصالح هذا الخطا ، فبدأ خدمته بالصوم
حتى عن الطعام المحلل للجميع • نحن نصوم لنروض الجسد
ونأجسه ونربيه • أما جسد المسيح فلم يكن جامعا حتى
يكبح جماحه ، فلماذا اذن صام ؟ ونحن نصوم لكي تصفو
الروح وتسدو • وروح المسيح فى صفاتها وسموها ليست
فى حاجة الى صوم يوصلها الى العلو الذى توجد فيه
بطبيعتها • اذن لماذا صام ؟

لقد صام عما ، أربعين يوما وأربعين ليلة • وفى ذلك
الصوم قدم لله الآب - نيابة عما - جسدا ظاهرا لا يحضغ
لنشهوة طعام ، استطاع أن يبرهن عمليا على أنه « ليس بالخبز
وحده يحيا الانسان » (متى ٤ . ٤) •

لقد ناب المسيح عنا فى تقديمه للآب صورة للانسان
الكامل المطيع لووصاياه • وفى نفس الوقت قدم للبشرية
الصورة الالهية التى خلقوا على مثالها •

[لأنى يقدم لنا الصورة الالهية]

أعد حتى الانسان على صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٧)
 في السر والعداسة والكمال ، ولكنه شبه تلك الصورة الالهية
 بخطائنا . لسببنا نقول هذا عن مجموعة خاصة معينة من
 الناس ، وانما عن الكل الجمع زاغوا ومسدوا معا . ليس
 من يعمل صلاحا ، ليس ولا واحد ، (مر ١٤ : ٣) . وهكذا
 وجدت الصورة الالهية من انكون . . . نعم تلك الصورة هي
 التي كان يعنيها ديوجين الميلسوف الذي رآه الناس ممسكا
 مصباحا في النهار وهو يقول يبحث عن شيء : فسأله
 « عن أى شيء تبحث ؟ » . فأجاب « أبحث عن أى انسان » !!
 ان الانسان في وضعه الأصلي - كصورة لله - لم يكن موجودا .

**فانى السيد المسيح يقدم للناس هذه الصورة الالهية ،
 بمثال عمل امامهم يروونه فيحاكونه . . . وهكذا قال لهم فيما
 بعد « لأنى أعطيتكم مثالا ، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون
 انتم ايضا » (يو ١٣ : ١٥) . بهذه الصورة رآها القديس
 بطرس الرسول « تاركنا لنا مثالا ، لكي تتبعوا خطواته »
 (١ بط ٢ : ٢١) . وبنفس المعنى يقول معاصمنا يوحنا
 الرسول « من قال انه ثابت فيه ، ينبغي انه كما سدت ذلك
 يسلك هو ايضا » (١ يو ٢ : ٦) . . .**

قدم لنا صورة للانسان المنتصر على الشيطان ، ليعالج

بها صورة آدم وحواء المدين انهرما أمام اغراء الحية وايعائها.
وهكذا بدأ خدمه بأن سمح للشيطان أن يجربه ، ليس مرة
واحدة كما فعل ابوسا الأولين ، وإنما ثلاث مرات (متى ٤) ،
أعقبتها فيما بعد تجارب لا تعد . واذا كانت كلمة الله ووصيته
على لسان الانسان الأول ، ولكنها ليست ثابتة في قلبه ،
ولا منفذة عمليا في حياته . كانت وصية الله وكلمته قوية
وفعالة في قم المسيح ، هزم بها الشيطان فلم يستطع أن يرد
عليه .

وفي حياة السيد المسيح قدم لنا صورة للانسان الكامل ،
الذى استطاع أن يتحدى جميع مقاوميه فدلا « من همكم
يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦) . ويقول عنه بولس
الرسول انه « محارب فى كل شىء مثلما بلا خطية » (عب ٤ :
١٥) . وقال عنه أيضا انه « قدوس بلا شر ولا دنس ، قد
انفصل عن الخطاة ، وصار أعلى من السموات » (عب ٧ :
٢٦) . لذلك عندما بشر الملاك العذراء بميلاده قال لها
« القدوس المولود منك . . . » (لو ١ : ٣٥)

**هذا القدوس ، اذ لم تكن فى حياته خطية يموت بسببها،
مات عن خطايانا نحن واستحق أن يكون قاذى البشرية .**

يمكننا أن نأمل حياته المقدسة ، وتأخذ لأنفسنا درسا
من كل عمل ومن كل قول . كانت حياته نورا يرشدنا الى
ما ينبغى أن نعمله . لذلك يسميه القديس يوحنا « النور
الحقيقى الذى يضىء لكل انسان » (يو ١ : ٩) .

واذ كانت خطية الانسان الاولى هي الكبرياء ، لذلك جاء
المسيح يلقننا درسا في التواضع .

درس عجيب في التواضع

سقط ابوانا الاولان في الكبرياء عندما قبلوا اغراء الحية
في قولها • تصيران مثل الله ••• (تك ٣ : ٥) ومن
وبلهما سقط الشيطان في هذه الكبرياء ذاتها اذ قال في قلبه
• اصعد الى السموات ••• اصير مثل العلي • (اش ١٤ :
١٣ ، ١٤) • فجاء المسيح يرد على هذه السقطة •

الانسان الترابي اراد ان يرتفع ويصير مثل الله • فاذا
بالله ينزل ليصير شبه الناس !! الانسان اراد ان يكبر ذاته ،
ومعالجه الرب بان اخلى ذاته • مقاييس العظمة كانت مرتبة
في حياة الانسان • فاصلحها له الرب • كان يرى العظمة
في الكبرياء ، فشرح له الرب عمليا كيف ان العظمة في
التواضع • ووضع ذلك المبدأ العجيب • اكبركم يكون خادما
لكم • فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع •
(متى ٢٣ : ١١ ، ١٢) •

كان الناس يقيسون عظمة الشخص بمقدار انفاخه
وتوقير الناس له • لذلك كان الكتبة والفريسيون • يحبون
السكا الاول في الولائم ، والمجالس الاولى في المجامع ، والتعقيات

فى الأسراق ، وأن يدعوهم الناس سيدى سيدى ، (متى ٢٣ : ٦ ، ٧) . فجاء السيد المسيح يعطى مالا آخر للعظمة ، العظمة الهادئة المضطربة غير المندمجة البعيدة عن الكبرياء ومديح الناس ، عظمة القلب النقى المنتصر على المجد الباطن ، عظمة البساطة والوداعة . ولأول مرة بدأنا نسمع عن جمال الاتضاع . . .

قبل المسيح كانوا يرون العظمة ، كعظمة الملوك ، فى فخامتهم وحسن منظرهم ، مثل شاؤل الملك الذى « من كفه الى فوق ، كان أطول من كل الشعب » (١ صم ٩ : ٢) . كانوا يرون العظمة فى المركبات والسيوف واحاطة الشخص نفسه بالحنود ورجال الحاشية والعبيد والخصيان . . !!
فإنهم السيد المسيح بصورة أخرى للعظمة ، عظمة مالك السهوات والأرض الذى لبس له ابن يسند رأسه ، عظمة السحس الذى ليس له مكان إقامة ، وليس له منصب ولا وطاعة فى المجمع ، ومع ذلك يهـ المجمع كله بأصابه . . . بعد جاء المسيح بصورة أخرى للعظمة لم يرها الناس من قبل . . .

كماوا يفهمين الكرامة بأن يجلس العظيم فلا يستطيع أحد أن يحرب اليه ، أو أن يمشى فى هيبة ووقار لا تقرب منه امرأة ولا طفل . . . **لذلك عندما اقترب الأطفال من المسيح ، انتهرهم اللاميد !! (او ١٨ : ١٥) .** فقال لهم الرب « دعوا الأولاد ياتون الى ولا تمنعهم ، لأن لكل هؤلاء ملكوت

الله ، ... وتعجب التلاميذ ، وكأنهم يفكرون في قلوبهم
« ما هذا الذي نراه منك يا رب ؟! انك كبير عن هذا المستوى ،
بجلستك على عرش عظيم ، والناس يسجدون لك من بعيد !!
لايستطيع الكبار أن يقتربوا اليك ، فكم بالأولى الأطفال !! » ...
وكان المسيح يجيبهم عن كل هذا « دعكم من هذه الصورة
الخاطئة التي اخذها الناس عن العظمة ، ... »

نفس الأمر تكرر في بيت الفريسي عندما أتت امرأة
خاطئة وبللت قدمي المسيح بدموعها ومسحتهما بشعر
رأسها ، وكانت تقبل قدمه وتدهنهما بالطيب (لوقا ٧ : ٣٨) .
فأدب الفريسي ، وتذمر في قلبه ... **كيف يقبل المسيح أن
تلمسه امرأة خاطئة وتقبل قدميه** ... ! ولكن السيد المسيح
دافع عن المرأة ، ورآها أعظم من الفريسي ، لأنها أحبت
كثيرا ، فغفر لها الكثير ... لم تكن العظمة في نظر المسيح
هي الترفع عن الناس والتعالي على الضعفاء ، وإنما محبة
الناس والعطف عليهم ...

**نفس الانقياد وجهوه الى الرب في جلوسه مع الخطاة
والعشارين ،** كما لو كان في جلوسه معهم أو اشتراكه في
« وانداهم ، انقاص من قدره وكرامته » . أما الرب فكان يرى
لكرامة كل الكرامة في البحث عن هؤلاء الضالين وأنقاذهم
مما هم فيه . وهنا تبدو كرامته كراع ، ومعلم ...

كل هذا يقنعنا بأن السيد المسيح - في مجيئه الينا -
كانت له الى جوار العمداء أسباب أخرى ، وإن كانت
جانبية ...

أسباب أخرى لمجيئه

لقد جاء السيد المسيح لكي يصلح التعليم الفاسد
الذي وقع فيه الناس ، ولكي يصحح المفاهيم الخاطئة للشرعية
وللناموس وللعبادى العامة فى الحياة ...

ذلك لان الكهنة والفريسيين وزعماء اليهود وكهنتهم
ورؤسائهم كانوا قد شوهوا كل شىء ، وفسروا الدين حسب
مزاجهم الخاص ، وأبطلوا وصية الله بسبب تقاليدهم (متى
١٥ : ٦) . ووضعوا على أكفاف الناس أحمالا ثقيلة عسرة
الحمل ، وأغلقوا ملكوت السموات قدام الناس ، فلا هم
دخلوا ، ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣) . من أجل
ذلك وبجهم المسيح ، وكشف زبائنهم أمام الناس . وقال
عن أعمال هؤلاء المعلمين الكذبة « جميع الذين أتوا قبلى هم
سراق وأصغر ، (يو ١٠ : ٨) . ذلك لأنهم غرسوا فى
أذهان الناس وقلوبهم تعاليم خاطئة ومفاهيم منحرفة .

لهذا جاء المسيح ليقدم مفاهيم جديدة . جاء يقلب تلك
الأوضاع ، ويقوم ثورة فى الحياة الدينية . أو كما قال للناس
جئت لأتمى نارا على الأرض . فماذا أريد لو اضطربت ،
(لو ١٢ : ٤٩) . جاء يشعل ثورة ، ما قبلها ثورة ،
ولا بعدها ثورة ... ثورة على الفهم الخاطئ للدين ، والفهم
الخاطئ للعبادى .

أقام المسيح دولة جديدة من الفكر العالى السامى ،

لا يمكن أن يصل اليه تفكير الموزين ولا تفكير الكعوشيه سبن
ولا تفكير البراهمة ولا تفكير الفلاسفة جميعا . جميع فلاسفة
العالم انحنوا فى خضوع وفى توقير أمام تعاليم المسيحية .
واذا بالمسيحية قد ارتفعت فوق كل تلك الفلسفات ،
وغلبتها جميعا . غلبت الفلسفة ، وغلبت القوانين ، وغلبت
الأنظمة الموجودة ، وغلبت الفكر العالمى . كل ذلك عن طريق
جماعة من الصيادين الجهلة الذين لا فكر لهم ، ولكن لهم فكر
المسيح . واستطاع هؤلاء أن ينشروا تعاليم الرب فى كل
مكان . مسناسرين كل فكر الى طاعة المسيح ، (٢ كو ١٠ :
٥) . حقا لقد قدم السيد المسيح نورا عجيبا للعالم .

نحن نفتخر ونفرح ونسر ، يمتلئ فمنا بركة وتسميحا ،

لأن المسيح اعطانا تعليما عظيما من هذا النوع يسمو على
كل تعليم آخر . صدقونى لو كانت المسيحية كلها ، ليست
فيها سوى هذه الآية الواحدة التى تقول « احبوا أعداءكم ،
باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين
يسبئون اليكم ويطردونكم » (متى ٥ : ٤٤) . لو كانت
المسيحية لا تحمل سوى هذه الآية الواحدة ، لكانت هذه الآية
الواحدة تكفى هابوا كل تعليم الفلاسفة لا تجدونه
يوازي هذه الآية فى سموها وعلوها وعمقها . . .

لقد جاء المسيح الى العالم فبهر العالم بتعليمه . .

يقول معلمنا القديس متى بعد تسجيله لعظة المسيح على الجبل

• فلما أعمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه •
 لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة ، (متى ٧ :
 ٢٨ و ٢٩) • لأن تعليمهما لا يدخل إلى الأذان والأذان فقط ،
 وإنما يحترق القلب ويستقر فيه ، بسلطان ••• ذلك لأن
 • كلمة الله حية ومعلمة ، وأمضى من كل سيف ذي حدين •••
 ومميزة أفكار القلب ونياته ، (عب ٤ : ١٢) • كان يعطي
 التعليم • ويعطي معه نعمة لتنفيذه • وربما عن هذا قال
 يوحنا الرسول • لأن الباريس بموسى أعطى • أما النعمة
 والحق فبیسوع المسيح صارا ، (يو ١ : ١٧) •

لم يكن تعليم المسيح مبهرًا للشعب فقط ، وإنما للرؤساء ،
 أيضا ، حتى في طفولته ••• أنه وهو صبي في الثانية عشرة
 من عمره ، جلس في الهيكل في اورشليم ، في وسط المعلمين ،
 في وسط الكتبة والكهنة والشييوخ وأعضاء مجلس السنهدريم
 • وكل الذين سمعوه ، بهتوا من فهمه وأجوبته ، (لو ٢ :
 ٤٧) • ولما بدأ كرازته ، نسمع عن نيقوديموس أحد رؤساء
 اليهود وعضو مجلس السنهدريم ، أنه جاء إلى المسيح ليلا ،
 يسأل ويتعلم (يو ٣ : ١ ، ٢) •••

وفي سلطان المسيح في التعليم ، وفي ثورته التعليمية ،
 نجده يقول في سلطان : سمعتم أنه قيل ••• وأما أنا
 فأقول لكم ••• » (متى ٥) • من ذا الذي يستطيع أن ينكلم
 هكذا عن شريعة الله ؟! ولكنه المسيح ، الذي أثار عقولنا

بذلك السمو العجيب في فهم الدين ، واستطاع أن يحول فكر البشرية وفهمها ...

الناس قبل مجيئه كانوا يفهمون أن القوة هي العنف ، فاعطاهم ملا المقوة هو قوة المحبة الباذلة ، التي تبذل ذاتها عن الآخرين ، ومثلا آخر عن القوة ، هو قوة الروح في الداخل .

والناس كانوا يفهمون الحرية بمعنى أن يفعل الانسان ما يشاء . فوضح لهم أن الحرية الحقيقية هي تحرر الانسان من الخطية وتحرره من عبودية الشهوة ومن سلطان الجسد ، بل تحرره من الذات ...

وفي تعليم المسيح اعطى الناس فكرة جديدة عن الله ذاته .
كانوا ينظرون الى الله كقوة جبارة لا يستطيعون الدنو منها . حتى انهم عند اعلان الوصايا العشر على الجبل ، كانوا مرتعدين ، وقالوا لموسى : نكلم انت معنا فنسمع ، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت ، (خر ٢٠ : ١٩) . اما في مجيء المسيح ، فاراهم الله في صورة اخرى . واخذوا فكرة عن الله المحب الشفوق ، الوديع المتواضع ، الذي لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع احد في الشوارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لا يطفى ، (متى ١٢ : ٢٠) . الله الذي يحول بينهم كراع صالح يسعى في طلب الضال ، وكطبيب يضمم الحروح ، وكمنير حقيقى يشرق للضالمين وغير انمارفين ... هذه هي الصورة الجديدة التي قدمها لهم عن الله فاحمدوه . والمحبة تطرح الخوف الى خارج ، (١ يو ٤ : ١٨) .

لأجل هذا كله فرح العالم بمجيء الرب . . . ووقف الملاك
 يحمل البشري للرعاة قائلا : ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون
 لجميع الشعب . (لوقا ٢ : ١١) . . . حقا انه فرح عظيم ،
 رأيتاه واصحاحا على وجه سمعان الشيخ الذي حمل الطفل
 يسوع على ذراعيه وبارك الرب قائلا : الآن يا رب تطلق عبدك
 بسلام ، لأن عيني قد أُنصرتا خلاصك الذي أعددتَه قدام وجه
 جميع الشعوب . (لوقا ٢ : ٢٩) .

على أنه ان كان كثيرون قد فرحوا بمجيء المسيح ، فإن
 البعض قد حزن لمجيئه . . . مثال ذلك هيرودس الملك .

مجيء المسيح أحزن هيرودس :

في وسط أفراح البشر والملائكة بميلاد المسيح ، كان
 هناك قلب حزين ومكتئب لهذا الميلاد المجيد . انه هيرودس
 الملك الذي بكر في ذاته فقط ، ولم يشأ أن يفكر في البشرية
 كلها وخلاصها . أتاه المحوس وقالوا له : « أس هو المولود ملك
 اليهود ؟ » . « بما أن سمع كلمة « ملك » حتى » اضطرب وجميع
 أورشليم معه . « أهو ملك حقا ؟ وهل يوجد ملك غيري ؟
 وكيف أتركه يملك ؟! ان هذا مستحيل . . . واضطرب هذا
 الملك المسكين ، واضطربت أورشليم كلها معه .!

مسكين أنت يا هيرودس ! هل ظننت في جهلك أن المسيح
 قد جاء ينافسك في الملك ؟! حقا انه ملك المدوك ورب الأرباب،
 ولكن مملكته ليست من هذا العالم (يوحنا ١٨ : ٣٦) . هل

أنت خائف لئلا يهز المسيح عرشك ، ويسلب تاجك ؛ اطمئن وافرح . ان لعبة التيجان تليق بالصغار أمثالك يلعبون بها .
أما المسيح فهو أسمر من التيجان ، واسمر من العروش .
السماء هي كرونيه . والارض - بما فيها عرشك - هي موطنه .
قدميه (متى ٥ : ٢٤ - ٢٥) .

لقد جاء المسيح من أجلك أيضا ، ليحررك . يحررك من عبودية الدات ، ومن عبودية الشهوات . يحررك من اغراء التيجان والعروش . يجعل نفسك طليقة تسبح في السماء كالنسر ، تعلو فوق مستوى التيجان والعروش والأكاليل والنياشين ...

كان احدى بهرودس ان يفرح لمجيء المسيح ، لو كان يفكر في خلاص نفسه . او على الاقل كان يمكنه ان يفرح لان النبوات قد تحققت في عهده . وهكذا بدلا من أن يذهب وينال بركة هذا المولود ، براه قد اضطرب وحزن . ولم يقنصر الأمر على اضطرابه ، بل فكر ان يقتل الصبي !!

تقتله ؟! يا للهول ! اتقتل من في يده مفاتيح الحياة والموت ؟! ان حياتك كلها معلقة بأصبعه ، بل هي معلقة بمجرد مشيئته ...

العجيب ان بهرودس لم يفكر ان يقتل المسيح عن جهل ، بل عن معرفة ! لقد جمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب ، وسألهم أين يولد المسيح ، فقالوا له في بيت لحم اليهودية .

وأوردوا له النبوءة • وصدق هيرودس النبوءة ، وفكر أن يقتل
المسيح ! عجب هذا منك يا هيرودس • ان كانت هذه النبوءة
حقا كما عرفت ، فهل أنت قادر أن تقف ضد الله ؟! وما معنى
هذا الجنون في الخوف الذي يدفعك الى قتل مائة وأربعة
وأربعين ألما من الأبطال الأبرياء ، لعل المسيح يكون واحدا
منهم !!

ان هيرودس لم يستطع ان يفرح بالميلاد ، لانه كان
متمركزا حول ذاته • كل تفكيره هو : كيف ترفع ذاته ، كيف
يصير ملكا وحده ؟ كيف يتخلص من منافس له في الملك ،
حتى لو كان المسيح ؟! حتى لو كانت النبوءات تسند هذا
المنافس وتقول انه لا تكون لملكه نهاية !

وأنت أيها الأخ ، هل أنت - مثل هيرودس - متمركز
حول ذاتك ، أم هل تفكر في المسيح وتفرح بمجيئه •

ان كنت تفكر في ذاتك كيف ترتفع أو كيف تلهو
وتتمتع ، فسوف تتعب من المسيح • ستشعر أن المسيح
سيحطم أصناما داخل ذاتك ، أو سيحطم هذه الذات نفسها •
ومثل هيرودس ستفكر كيف تقلل المسيح أو كيف تتخلص
منه ...

لا تفكر أن هيرودس هذا كان شاذًا وحده • كلا ،
فكل واحد يمكن أن يكون مثل هيرودس ، ولا فرق !

انت أيضا تريد أن يكون لك سلطان وعظمة ورفعة • والمسيح يريد أن يملك عليك ، وأنت ترفض أن يملك • تريد أن تتصرف كما تشاء ...

يقولون لك • هو ذا المسيح قد جاء ليملك • فنقول • أبا خائف من ملك المسيح هذا ، لأن ملك المسيح هو صليب سوف أحمله !! معناه أن شخصيتي ستضيع ، ويظهر المسيح • وأنا لست أريد أن تمحى شخصيتي ... • وهكذا تردد عبارات الوجوديين الملحدين الذين يخشون وجود الله • والذين يقول زعيمهم سارتر • ان وجود الله يلغى وجودي • فمن الخير أن لا يوجد الله ، لكى أوجد أبا • " انه نفس منطق هيرودس ونفس تصرفه ، والقياس مع الفارق ...

عكس موقف هيرودس من المسيح ، كان موقف يوحنا المعمدان • كان المعمدان فى قمة مجده وعظمته • ثم ظهر المسيح • فقال يوحنا • ينبغي أن ذاك يزيد ، وأنى أنا ألقص • (يو ٣ : ٣٠) • يوحنا كان يختفى لكى يظهر المسيح • أما هيرودس فأراد أن يختفى المسيح ، لكى يظهر هو !! مسكين ، كانت ذاته هى سبب متاعبه • لقد انطبق عليه قول الرب • من وجد ذاته يضيعها ، (متى ١٠ : ٣٩) • وأما النصف الآخر من الآية • ومن أضاع ذاته من أجل يبعدها ، فينطبق على يوحنا •

كثيرون لا يفرحون بمجى المسيح ، ذلك لأنهم غير مستعدين للقائه • لو عرفوا أن المسيح قد جاء يخافون

ويرتعشون • يحادون أن يكشفهم ، أو أن يضبطهم في خطية ،
أو أن يحرمهم من مشغوليات نبهتهم ••• شخص يقولون له
« قد جاء المسيح » فيصرخ في رعب « وماذا أفعل ؟ ! لم
أعترف بعد ، ولم أتب بعد ، ولم أستمع للقاءه ••• أنا ما أزال
سألكا حسب الجسد • فهل سيجدني المسيح هكذا ؟ ويأى
وجه سأقابله •••

ماذا نفعل لو قيل لنا « هو ذا المسيح قد جاء » ؟
أخاف أن نقول « نحن غير قادرين أن نستمع للقاءه • من
الأفضل أن تقتلوه ••• » •

لا يا أخى لا تفعل هكذا • بل كن كالرعاة الساهرين ،
الذين كانوا يحرسون حراسات الليل ، فاستحقوا ذلك الفرح
العظيم الذى بشرهم به الملاك • أو كن كالحمس عسكارى
الحكيما اللاتى كن ساهرات ومستعدات للقاء الرب •



الفصل الثاني

مُصَالِحَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أول شيء نتذكره في ميلاد الرب هو عمق محبته للناس .
فمن أجل محبته لهم سعى لخلاصهم . ومن أجل محبته لهم
أخلى ذاته ، وأخذ شكل العبد ، ونزل من السماء ، وتجسد
وصار في الهيئة كإنسان (في ٢ : ٧ ، ٨)

إن التجسد والفداء ، أساسهما محبة الله للناس .
فهو من أجل محبته لنا ، جاء إلينا . ومن أجل محبته لنا ،
مات عنا . لهذا يقول الكتاب « هكذا أحب الله العالم ، حتى
بذل ابنه الوحيد . . . » (يو ٣ : ١٦) . انظروا ماذا يقول
« هكذا أحب . . . حتى بذل » . نحن اذن في تجسده ،
نذكر محبته التي دفعته الى التجسد . واعترافا منا بهسده
لمحبة ، نتغنى بها في بدء كل يوم ، اذ نقول للرب في صلاه
باكر « أتيت الى العالم بمحبتك للبشر ، وكل الخليقة تهلت
بمجيئك » .

**قبل ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك خصومة بين الله
والناس .** فحاء المسيح لكي يصالحنا مع الله ، أو جاء لكي
يصطالح معه . قبل مجيئه كانت هناك خصومة بين السماء
والأرض . ومرت فترة طويلة كانت فيها شبه قطيعة بين
السماثيين والأرضيين : لا رؤى ، ولا أحلام مقدسة ، ولا
أنبياء ، ولا كلام من الله للناس ، ولا ظهورات مقدسة . . . ولا

أية صلة واضحة ... !! كانت الأرض بعيدة عن السماء طوال تلك الفترة ...

كانت خطايا الناس كلياالى الشتاء : باردة ومظلمة وطويلة.
وكانت تعجب وجه الله عنهم . وكانت الحسومة بينهم وبين الله ، يمثلها فى الهيكل الحاجز المتوسط الذى لا يستطيع أحد من الشعب أن يجتازه الى قدس الأقداس ... وزادت خطايا الناس ، واحتدم غضب الله عليهم ، واستمرت القطيعة . ولم يحاول البشر أن يصطلحوا مع الله .

ثم جاء السيد المسيح ، فاقام صلحا بين السماء والأرض، وأرجع الصلة بينهما . وبدأت تبشير الصلح تظهر . ورجعت العلاقات كما كانت من قبل وأكثر ...

ولكى أوضح الأمر لكم أقول : تصوروا أن دولتين متخاصمتين ، قد رجع الصلح بينهما ، فماذا تكون النتيجة : طبعا ترجع العلاقات كما كانت : يعود التمثيل السياسى بينهما ، وارسال السفراء والقناصل ... وفى ظل المودة الجديدة تبرم اتفاقية اقتصادية ، اتفاقية ثقافية ، اتفاقية عسكرية ... المهم أنه توجد علاقة وصلة . كذلك لنفرض أن شخصين متخاصمين قد اصطلحا ، فى ظل الصلح نرى العلاقات قد بدأت ترجع ، تعود التحيات والابتسامات والزيارات والأحاديث ، وتعود المودة ... هكذا حدث بين السماء والأرض . وبدأت تبشير الصلح تظهر بمجىء المسيح الى الأرض أو فى خطوات ومهدات مجيئه ...

تباشير الصلح

وأول شيء شاهدناه من نباشير هذا الصلح هو كثرة نزول الملائكة الى الأرض . في مجيء المسيح وقبيل مجيئه ازداد ظهور الملائكة بشسكن واصبح . طهررات متواليه ، فردية وجماعية ، كسمراء للرب . بهل الملائكة بمرح عظيم ، وأرادوا أن يشتركوا في هذا الحدث العجيب وهو تجسد الرب وميلاده فظهر ملاك يبشر زكريا بولادة يوحنا (لو ١ : ١١) ، وملاك يبشر العذراء بولادة المسيح (لو ١ : ٢٦) ، وملاك ظهر ليوسف في حلم بخبره بحمل العذراء (متى ١ : ٢٠) . وملاك ظهر للرعاة يبشرهم بالميلاد الابن (لو ٢ : ٩) . وملاك ظهر ليوسف في حلم وأمره أن يهرب بالطفل بسدوع وأنه الى مصر (متى ٢ : ١٣) . بالاضافة الى هذا جمهور الملائكة الذين طهروا مسبحين الله وقائلين « المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام ، وبالماس المسرة » (لو ١٢ : ٢٣ و ١٤) . ان ظهور الملائكة بهذه الكثرة ، يدل على ان العلاقات بدأت ترجع بين السماء والأرض ، وتدل على فرح الملائكة بالخلاص المزمع ، واشتراكهم مع الأرضيين في هذا الفرح .

وظهور الملائكة في فترة الميلاد كان مجرد طلائع للملائكة الذين ملأوا العهد الجديد . . . ملائكة كانوا يخدمون الرب على جبل المحربة (مر ١ : ١٣) ، وملائكة القيامة الذين طهروا للمسرة ، ومثل الملاكين اللذين طأنا الرسل وقت صعود

الرب (ا ع ١ : ١٠) . . . كان هؤلاء جميعا طلائع نعرف بهم
الملائكة عبر المرثيين المحيطين بنا الآن ، الذين قال عنهم القديس
بولس الرسول « ليس جميعهم أرواحا خادمة ، مرسلة للخدمة
لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) .

**ولم تكف السماء في صلحها مع الأرض بظهور الملائكة ،
بل امتدت الى الأحلام المقدسة بما فيها من توجيه ومن اعلان .**

اجتمع الأهران معا بألسنة ليوسف الصديق : ملاك ظهر
له في حلم يخبره بالحبل المقدس (متى ١ . ٢٠) . وملاك ظهر
له في حلم يأمره بالذهاب الى مصر (متى ٢ : ١٣) . ثم
بعد ذلك ظهر له ملاك في حلم في أرض مصر يأمره أن يرجع
الى بلده لانه « قد مات الذين كانوا يطلبون نفس لدمي »
(متى ٢ . ٢٠) . ولما خاف أن يذهب الى اليهودية بسبب أن
ارخيلاوس كان يملك هناك ، « أوحى اليه في حلم ، أن ينصرف
الى نواحي الحليل ، فذهب وسكن في الناصرة (متى ٢ : ٢٢) .

**هؤلاء الملائكة الذين ظهروا ليوسف الصديق في الأحلام ،
يعطوننا فكرة عن سمو مكانة العذراء ، فالعذراء طهر لها
الملائكة عيانا في صحوها ، وأنهم بعينها وسمعتهم بأذنيها ،
أما يوسف الصديق فرأى وسمع في الأحلام . ان هذا يذكرنا
بالهرق الكبير بين مركز موسى النبي ومركز هارون ومريم ،
الذين وبعهما الرب عندما تقولا على موسى ، فقال لهما « ان
كان منكم نبي للرب ، وبالرؤيا استعلن له ، في الحلم اكلمه .**

واما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى . فما الى قم وعيانا أتكلم معه ، (عدد ١٢ : ٦-٨) .

لقد كلم الملائكة يوسف الصديق عن طريق الاحلام . وهكذا حدث أيضا مع المجوس ، بعد أن رأوا الطفل يسوع ، وقدموا له هداياهم ، وأوحى اليهم فى حلم أن لا يرجعوا الى هيرودس ، فاصرفوا الى كورثهم (متى ٢ : ١٢) .

وحديث المجوس يذكرنا بظهورات مقدسة أخرى صاحبت حدث الميلاد ، ونقصد أولا النجم الذى ظهر للمجوس ، وارشدهم الى مكان المذود المقدس (متى ٢ : ١-١٢) . لم يكن ذلك النجم نجما عاديا - كما شرح القديس يوحنا ذهبى الفم - بل كان قوة الهية أرشدتهم . ذلك أن مساره كان غير عادى، من الشرق الى الغرب . وكان يظهر حيناً ، ويختفى حيناً آخر ، وتقف حيناً ثالث . كذلك ارشاده لمكان المذود معناه أنه هبط من علوه هبوطا يوضح المكان وبخاصة لأن الكتاب يقول عنه انه وقف حيث كان الصبى ، . هذا النجم كان ظهورا مقدسا ولم يكن نجما كباقي النجوم ...

وفى صباح السماء مع الأرض الذى جلبته بركة الميلاد لم تقتصر الصلة على ظهور الملائكة والاحلام المقدسة والظهورات المقدسة ، بل أيضا رجعت روح النبوة مرة أخرى ، ورجع عمل الروح القدس فى الناس وامتلاؤهم منه .

نقرأ عن يوحنا المعمدان في بشارة الملاك عنه انه « من
 بطن أمه يمتلئ من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) . ونقرأ في
 بشارة الملاك للعذراء قوله لها « الروح القدس يحل عليك ،
 وقوة العلي تظلمك » (لو ١ : ٣٥) . ونقرأ في زيارة العذراء
 مريم للقديسة اليصابات انه « لما سمعت اليصابات سلام
 مريم ، ارتكض الجنين في بطنها ، وامتلات اليصابات من الروح
 القدس » (لو ١ : ٤١) . ونقرأ عن زكريا الكاهن - بعد
 انقضاء فترة صمته - « وامتلا زكريا أبوه من الروح القدس
 وتنبا قائلا . . . » (لو ١ : ٦٧) . نقرأ أيضا عن سمعان
 الشيخ انه كان رجلا بارا ، والروح القدس كان عليه وكان
 يد أوحى اليه بالروح القدس . . . » (لو ٢ : ٢٥ ، ٢٦) .

**عجيب جدا هذا العمل الواسع للروح القدس في الناس
 في تلك الفترة المقدسة . وعجيب هذا الامتلاء من الروح
 القدس وهذا الحلول ، وهذا التنبؤ أيضا . . .** لقد تنبا زكريا
 الكاهن ، وتنبات امراته اليصابات ، وتنبا سمعان الشيخ ،
 وتنبات حنة بنت فنوئيل (لو ٢ : ٣٦) . وبدأ أن الله رجع
 يتكلم في أفواه الأنبياء . . . وكل ذلك كان من بوادر انتهاء
 الحصرمة بميلاد المسيح ، أو كانت هذه هي تبشير الصلح
 الذي تم على الصليب .»

وكان من تبشير الصلح أيضا رجوع المعجزات .
 والمعجزات دليل عمل يد الله مع الناس . . . كان انفتاح رحم
 اليصابات العاقر هو المعجزة الأولى . وكان صمت زكريا

الكاهن ثم انصاع فمه بعد تسعة أشهر معجرتين أخريين .
وكانت معجزة المعجزات هي ولادة السيد المسيح من عذراء .
وكان ارتكاض الجنين بابتهاج في بطن اليصابات تحية للجنين
الاله الذى فى بطن العذراء هو معجزة أخرى . ولا نستطيع
أن نحصى المعجزات التى رافقت ميلاد المسيح وطفولته . أما
معجزاته فى أرض مصر ، فلعل أبرزها هو ما يشير اليه أشعيا
النبي قائلا . هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى
مصر . فنرتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر
داخلها . (أش ١٩ : ١) . وفعلنا سقطت أوثان مصر بدخول
الرب اليها

**كل هذا يدل على أن يد الرب قد بدأت تعمل ، وأن ميلاد
المسيح كان مقدمة لصلح السماء مع الأرض ، الصلح الذى
قمنا ان أولى تباشيره كان ظهور الملائكة . ويعلم أن يقف
وقفة تأمل بسيطة عند ظهورات الملائكة هذه**

■ **اول ملاك ظهر وذكره الانجيل المقدس . كان هو الملاك
الذى ظهر ازكريا الكاهن . انها لفتة كريمة من الرب يعطى
بها كرامة للكهنة ، فيكون ظهور الملائكة أولا للكينة ، بعد
فترة الاحتجاب الطويلة . وافتة كريمة أخرى للكهنة ، أن
يظهر الملاك فى مكان مقدس . واقفا عن يمين مذبح البخور ،
وفى لحظة مقدسة عندما كان زكريا البار يكهن للرب ويرفع
البخور أمامه (لو ١ : ٨-١٠)**

جميل من الرب أنه عندما أرسل خدامه السمايين ،
أرسلهم أولا الى بيته المقدس والى خدام مذبحه الطاهر .
ولا شك أن هذا كله يشعرونا بجمال المذبح الذى وقف الملاك
عن يمينه فى أول تبشير الصلح . كم بالأكثر جدا مذبح العهد
الحديد فى قدسيته الفائقة للحد ، حيث ملاك الذبيحة الصاعد
الى العلو يحمل الى الله تضرعنا . . .

نعود الى الملاك الطاهر الذى ظهر لزكريا الكاهن . . .

كان ملاكا يعمل بشارة مفرحة . لقد عاد الرب يفرح وجه
الأرض التى حرمت كثيرا من أفراحه فى فترة القطيعة والخصومة .
وهل هناك فرح أعظم من تبشير زوج العاقر بأنها ستلد ابنا
" لم يقم بين المولودين من النساء من هو أعظم منه ، (متى
١١ : ١١) ، ابنا سيكون . عظيما أمام الرب ، (لو ١ : ١٥) !!
عمارات « الفرح » تدفقت من فم الملاك ، وقال « لا تخف
يا زكريا ، لأن طلبتك قد سمعت ، وامرأتك اليصابات ستلد
لك ابنا ، وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح ، وابتهاج ،
وكثيرون سيفرحون بولادته » .

وكانت ايعازة جميلة من الرب فى تبشير هذا الصلح ،
أن يسمى الطفل « يوحنا » . . . وكلمة يوحنا معناها « الله
حنان » !!

وكان الله يقصد أنه وان تركنا زمنا ، الا أن محنته دائمة
الى الأبد ، . مياه كسرة لا تستطيع أن تطفئها ، (نش ٨ : ٧) .
وأنه وان حجب وجهه حنا ، فانه لا يحجب قلبه الحنون .

فعلى الرغم من فترة القطيعة بين السماء والأرض التى سبقت ميلاد المسيح ، وعلى الرغم من الخصومة القائمة ، كان الله هايزال كما هو ، كله حنان وشفقة . . . « الله حنان » أو « الله حنون » . لعل هذا يذكرنا بقول الرب من قبل « لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب ، وكزوجة الصبا . . . لحيطه تركتك ، وبمراحم عتيمة سأجمعك . بغيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة ، وباحسان أبدي أرحمك . . . »
(أش ٥٤ : ٦-٨)

انها نبوة اشعيا عن مصالحة الرب لشعبه وكنيسته ،
قد بدأت تتحقق . . . تلك النبوة العجيبة ، الجميلة فى موسيقاها ، التى بدأها الرب بنشيد العذب « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد . . . » (أش ٥٤ : ١) . ترى أكانت اليصابات « العاقر التى لم تلد » رمزا للكنيسة فى افتقاد الرب لها ؟ وهل كان اسم ابنها يوحنا « الله حنان » رمزا أيضا لمصالحة الله لكنيسته ؟ وهل ترنم اليصابات « العاقر التى لم تلد » كان بشيرا بتحقيق باقى مواعيد الله اذ يقول لكنيسته فى نفس النشيد :

« كما حلفت أن لا تعبر حد مياه نوح على الأرض ، هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك . فان الجبال تزول ، والآكام تزعزع . أما احسانى فلا يزول عنك ، وعهد سلامى لا يشزعزع ، قال راحمك الرب » .
« أيها الدليلة المضطربة غير المنعزية ، هاذا أبنى بالأئمة

حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك . وأجعل شرفاتك
ياقوتا ، وأبوابك حجارة بهرمانية ، وكل تخومك حجارة
كريمة . وأجعل كل بنيك تلاميذ للرب ، وسلام بنيك كثيرا .
(أش ٥٤ : ٦-١٣)

هل كان هذا الاصحاح الرابع والخمسون من نبوة اشعيا .
موضع تأمل القديسة اليصابات في خلاص الرب القريب ، طوال
الستة أشهر التي مرت ما بين بشارة الملاك لزكريا وبشارة
الملاك للعدراء ؟! ان هذه الفكرة تملأ قلبي ، وتضغط على عقلي
بالحاح شديد . . . ولا شك أن هذه القديسة الشبيخة التي
كانت تحمل ابنا نذيرا للرب في أحشائها ، كانت تشعر أنه
ليس بأمر عادي هذا الذي حدث لها . واذ تتأمل في هذا
الفصل من اشعيا - الذي ينطبق عليها وعلى الكنيسة - يهز
كيانها كله هذا « النبي الانجيلي » اذ يقول « ها العدراء تخبل
وتلد ابنا وتدعو اسمه عماونيل » (أش ٧ : ١٤) .

قلنا انه من تبشير الصلح بين السماء والأرض كان ظهور
الملائكة للبشر . وكان الملاك الأول هو الذي بشر زكريا الكاهن

■ **أما الملاك الثاني ، فكان جبرائيل ، الذي بشر السيدة
العدراء .**

بلاحظ أن هذا الملاك كان له مع العدراء أسلوب معين .
لقد بدأها بالتحية ، بأسلوب كله توقير واحترام لها . في
بشارة زكريا لم يبدأ الملاك بالتحية ، وإنما قال له « لا تخف

يا زكريا فان طلبتك قد سمعت . . أما في إشارة العذراء
فقال لها الملاك . السلام لك أيتها لمتلثة نعمة . **الرب معك** .
وعندئذ - بعد هذه المقدمة - بدأ الملاك في اعلان رسالته .
وحتى هذه الرسالة أدمجها بعبارة مديح أخرى فقال . لا تخافى
يا مريم ، لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، ثم بعد ذلك بشرها
بأنجب الذى جاء من أحله . ها أنت ستحبلين وتدين ابننا
وتسمينه يسوع

**انه اسلوب احترام عجيب يليق بالتحدث مع والدة الاله
المجدة ، الملكة الجالسة عن يمين الملك .**

لم يستطع رئيس الملائكة جبرائيل أن يسيأه واقف أمام
أقدس امرأة فى الوجود . وانه واقف أمام أم سيده ، التى
ستكون سماءا ثابته لله الكلمة . فخاطبها بأسلوب غير الذى
خوطف به الكاهن البار زكريا . . .

هنا نلاحظ أنه لم يبدأ فقط صلح بين السمايين
والأرضيين ، بل بدأ تقدير وتقدير من سكان السماء لسكان
الأرض فى شخص أمنا وسيدنا العذراء مريم . . . فمرحباً
بهذا الصلح .

■ **أما الظهور الثالث ، فكان ظهور ملاك الرب للرعاة .**

هنا نجد نقدا ملبوسا فى العلاقات ، اذ لم يقتصر الأمر
على أن . ملاك الرب وقف بهم ، بل بقول الكتاب أكثر من هذا
« ومحمد الرب . . أصاء حولهم . . وبعد أن بشرهم الملاك

«مرح عظيم» يكون «لجميع الشعب» ، وبولادة «مخلص» ،
ظهر بفتة - مع الملاك - جمهور من الجند السماوي يسبحون
الله وقائلين : «المجد لله في الأعالي» ، وعلى الأرض السلام ،
وبالناس المسرة » .

وهنا نسمع عبارات الفرح ، والمسرة ، والسلام ، والخلاص
... وبدلاً من جمهور ملاك واحد ، نرى جمهوراً من الجند
السماوي يسبحون .

إنها نباشير الصلح العظيم ، المزيج أن يتم على الصليب .
ونلاحظ أن هذا الصلح قد بدأه الله لا الناس .

الله يَصَالِح البشريّة

أول ما نتذكره في هذا المجال ، هو أن الله يسعى لخلاص
الإنسان ، حتى لو كان الإنسان لا يسعى لخلاص نفسه .

نلاحظ هذا منذ البدء : عندما أخطأ آدم وسقط ، لم يسع
لخلاص نفسه ، بل برأه - على العكس من ذلك - قد هرب من
الله ، وخاف من الله ، واختفى من الله . لم يحدث أنه سعى إلى
الله ، طالباً الصفح والمغفرة ، وطالباً النقاوة والطهارة . بل
إنه لما سمع صوت الرب الإله ماشياً في الجنة ... ، اختبأ
هو وامراته من وجه الرب (تك ٣ : ٨) . وهكذا أوجد
حجاباً وحاجزاً بينه وبين الله . وبدأت الحصرمة .

من الذى سعى لخلاص آدم ؟ انه الله نفسه ، دون أن يطلب آدم منه ذلك . آدم شغله الخوف عن الخلاص أو حتى عن مجرد التفكير فيه وهكذا بحث الله عن آدم ، وتحدث معه وأعطاه وعدا بأن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥) .

لقد اعتبر الله أن المعركة الدائرة هي بينه وبين الشيطان ، وليست بين الشيطان والانسان . اعتبر أن قضيتنا هي قضيته هو . وإذا بنسل المرأة الذى يسحق رأس الحية هو الله نفسه الذى أتى فى ملء الزمان من نسل المرأة . هو الله اذن الذى دبر قصة الخلاص كلها . لأنه يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون ، (١ نى ٢ : ٤) . هو يريد خلاصنا جميعا ويسعى اليه ، حتى ان كنا نحن - فى تكاسلنا أو فى شهواتنا - غافلين عن خلاص أنفسنا

فى قصة الخروف الضال ، نرى ان هذا الخروف الضال لم يسع لخلاص نفسه ، وإنما ظل تائها وبعيدا . والراعى الصالح هو الذى جرى وراءه ، هو الذى فتش عليه وسعى اليه ، وهو الذى تعب من أجله الى أن وجده ، وحمله على منكبيه فرحا ، ورجع به سالما الى الحظيرة

وفى قصة الدرهم المفقود ، نجد نفس الوضع أيضا الله اذن هو الذى يسعى جاهدا لخلاص الانسان .

فإن تعطل خلاص الانسان ، يكون السبب بلا شك راجعا الى الانسان ذاته وليس الى الله .

وهذا الأمر واضح فى تبيكت الرب لأورشليم ، اذ قال لها
• يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين
اليها • كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة
فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا ، (متى ٢٣ : ٣٧) •••
أنا أردت ، وأنتم لم تريدوا •••

مثال آخر هو عروس النشيد • الله هو الذى سعى لخلاصها
، طافرا على الجبال ، وقافزا على التلال ، • وقال لها • افتحى لى
يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى ، لأن رأسى قد امتلأ
من الطل وقصصى من ندى الليل ، (نش ٥ : ٢) • وتكاسلت
النفس فى الاستجابة ، وتعللت بالأعذار • فماذا كانت
النتيجة ••• كانت انها عطلت عمل النعمة فيها بعض الوقت ،
وصاحت فى ندم • حبيبى تحول وعبر •••

تأكد انك ان كنت تريد الخلاص من الخطية ، فإن الله يريد
لك ذلك أضعافا مضاعفة ••• المهم انك تبدى رغبتك المقدسة
هذه • هناك عبارة لطيفة قالها أحد القديسين • قال • ان
الفضيلة تريدنا أن نريدها لا غير • • يكفى أن نريد ، ارادة
جادة ، والله يتولى الباقي • بل حتى هذه الارادة هو يمنحها
لنا ، لأجل خلاصنا •

ومن القصص العجيبة عن سعى الله لخلاصنا ، ما يقوله الله
- فى سفر حزقيال النبي - للنفس الخاطئة الملوثة •••
• مررت بك ورأيتك مدوسة بدمك ••• وقد كنت عريانة
وعارية • فمررت بك ورأيتك واذا زمناك زمن الحب • فبسطت

ذيلي عليك ... ودخات معك في عهد - يقول السيد الرب -
فحمتك بالماء ، وغسلت عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت ،
والبستك مطرزة ... وجملت جدا جدا ، وصلحت لملكة ،
(حز ١٦) .

تلك النفس المسكينة - لو تركت لذاتها - لبقيت على
حالتها معاروجة وملوثة ، عريانة وعارية . ولكن الله فعل من
أجلها الكثير ، وأبقدها مما هي فيه ...

ولكن ايها معنى سعى الله لخلاصنا ، اننا نتكل على ذلك
وتكسل ! كلا والا فانه يتحول ويغير كما حدث مع عروس
النشيد . انما يجب ان نتحد ارادتنا بإرادته ، وعملنا بعمله .
هو ينزل الى عالمنا ، ونحن نقدم له ولو مزودا ليسرّح فيه ...
ان الله يسعى لخلاصنا ، ويسعى ليصالحنا معه . عجيب
في هذه المصالحة . اننا نرى الصلح يبدأ من جانب الله ، أكثر
مما يبدأ من جانب البشر ... انه درس لنا حينما تكبر قلوبنا
على اخواننا الصغار ، فلا نسعى لمصالحتهم بحجة أننا الكبار !!
بينما قد وضع لنا الله مثالا حسنا ..

الكبير يسعى لمصالحة الصغير

في كل تبشير الصلح التي ذكرناها نرى أن الله هو
الساعي لمصالحة البشرية . الدور الذي لا يدنى منه ، يسعى
لمصالحة التراب والرماد ! ملك الملوك ورب الأرباب يتقدم

ليصالح عبده . . . نراه أنه هو الذي أرسل الملائكة للبشر ،
وهو الذي بحث اليهم برسائل في الأحلام . وهو الذي أرجع
لهم روح النبوة ، وهو الذي عمل على إعادة العلاقات كما
كانت من قبل . . . بل هو الذي أرسل اليهم ابنه الوحيد
ليخلصهم ، من فرط محبته لهم .

**وكما قال القديس يعقوب السروجي : أنه كانت هناك
خصومة بين الله والانسان . فلما لم يتقدم الانسان لمصالحة الله
نزل الله ليصالح الانسان .**

ولم يحدث هذا في الميلاد فقط ، وإنما كان هو دأب الله
دائما . نراه وهو الكبير العالى غير المحدود يسعى لمصالحة
الانسان . يقول : أنا واقف على الباب وأقرع . من يفتح لى
أدخل وأنعش معي ، (رؤ ٣ : ٢٩) . ونحن نتساءل في
عجب : كيف يارب ينف على الباب وتقرع . البشر هم الذين
بذهبون الى بابك ، ويقبلون أعنابك ، ويطلبون رضاك . . .
بقول الله : بل أنا الذى أذهب اليهم . أنا لست أبحث عن
كرامة لى ، وإنما أنا أبحث عن خلاصهم هم . ولا يمكننى أن
أستريح حتى أطمئن على خلاصهم .

حقا ، ما أعجب قلب الله المحب ، وما أعجب تواضعه . . .
الله يرسل الأنبياء والرسول لىكى يصالحوه مع البشر .
يعترف بولس الرسول بهذا فيقول : نسعى كسفراء عن
المسيح ، كأب الله يعظ بنا ، نطلب عن المسيح . تصالحوا مع
الله ، (٢ كو ٥ : ٢٠) .

حقا : هل كان هناك عمل آخر للأنبياء سوى عقد صلح بين الله والناس . والله هو الذى طلب الصلح فأرسل أنبياءه ! بل ما أعجب الرب فى سعيه للصلح اذ يقول : « بسطت يدي طول النهار ، الى شعب معاند ومقاوم » (رو ١٠ : ٢١) . ورغم معاندة الشعب مازال الرب باسطا يده ، يطلب صلحا معنا بل ان الله يقول للناس « هلم نتحاجج » (أش ١ : ٢١) .

الله هو الذى صالح يونان النبی لما اغتم واغتاظ ،
مع ان غضبه لم يكن حسب مشيئة الرب . اعد له يقطينة « فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه ، لكى يخلصه من غمه » وظل يجاذبه الحديث قائلا له « هل اغتظت بالصواب ؟ » ويونان يجيب « اغتظت بالصواب حتى الموت » . وهكذا لم يزل به حتى أقبعه وصالحه (يونان ٤) .

والسامرة التى اغلقت ابوابها فى وجهه ، لان وجهه كان متجها نحو اورشليم ، لم يتضايق من تصرفها هذا ، ولم ينزل نارا من السماء ليعرقها كما اقترح التلميذان ، بل ذهب اليها مرة اخرى ليصالحها ، وهى المخطئة . وبذل من حبه ورعايته حتى اصلحها وصارت له (يو ٤) .

وفى قصة الابن الضال ، ترى ان الابن الكبير لما غضب ورفض ان يدخل ، ورفض ان يشترك فى الفرح برجوع أخيه ، مع ان غضبه لم يكن مقدسا ، ومع ان ارادته كانت ضد ارادة

لاب ، الا ان الاب ذهب اليه ليصالحه . وفى ذلك يقول الكتاب
• فخرج أبوه يتوسل اليه ، (لو ١٥ : ٢٨) •

ومع ان كلام هذا الابن كان قاسيا فى حديثه مع أبيه، وكانت
اتهاماته كثيرة وظالمة ، الا ان الأب احتمله ، وأطال أناته عليه
حتى صالحه . ولم يقل له كيف وأنت صغير تكلمنى هكذا !

ولمنا اخطا بطرس وانكر المسيح ، لم ينتظر الرب حتى
ياتى بطرس تائبا ومعتذرا ، بل هو الذى بدأه بالكلام ، وسهل
الأمر عليه ، وأرجع العلاقات كما كانت ، بنفس الدالة ...

ان الرب لا يرى فى سعيه للصلح انقاصا لقدره أو اضعافا
لكرامته ، بل على العكس انه يبرهن على معبته وعلى تواضعه
فيفزاد حب الناس له •

وان كان الله بميلاده قد جاء ليصالحنا ، فاذهب انت
يا اخى وصالح غيرك • لا تقل كيف اذهب أنا ؟ هم الذين
ياتون • كلا ، فان الذى يقوم بالصلح ، هو الذى ينال بركته
... ولا تقل كيف أصالح ابنى ، أو أخى الأصغر ، أو خادمى ،
أو مرؤوسى ، وأنا الكبير ؟!

اعرف تماما أن الكبير هو الكبير فى قلبه وفى حبه ، وهو
الكبير فى فضائله وفى احتماله • والله لا يقيس الناس بمقياس
السن أو المركز ، بل بنقاوة القلب •

ومهما كنت كبيرا ، فلن تكون مطلقا في درجة الله الذي
سعى لمصالحة عبيده ومخلوقاته ! وحاذر من أن تطلب احتراماً
بليق بك ، حتى لو كان يليق بك المجد والكرامة !! بل
اطلب محبة الناس وبركتهم . وفي ذكرى الميلاد تذكر تواضع
الرب الذي نزل من سمائه إلينا ، فكيف لا ننزل بعضنا
لللبعض ...

وفي مصالحة الناس ، لا تفكر في خطية غيرك - كبيرا كان
أم صغيرا - وإنما فكر في نقاوة قلبك ، وصنع أمامك تواضع
الرب في مصالحته للبشر .



الفصل الثالث

دروس من حياة العذراء

اتضاع العذراء

فى الحديث عن الميلاد البتولى المجيد ، لا نستطيع أن نتكلم عن المجوس وهيرودس والرعاة ... ونترك شخصية العذراء التى هى مصدر دسم عميق للتأملات الروحية . السيدة العذراء هى أظهر وأنقى وأقدس فتاة وجدت على سطح الأرض ، ولا يوجد لها شبيه ...

لقد وعد الله الانسان بالخلاص ، وقال له ان نسل المرأة سوف يسمحق رأس الحية . ومرت آلاف من السنين الى أن تم هذا الخلاص . ولعل من أهم أسباب هذا الانتظار ان الرب كان ينتظر الفتاة القديسة الطاهرة التى يمكنه أن يحل فى أحشائها .

كان ملء الزمان ينتظر هذه الفتاة القديسة . آلاف من النساء وجئن على الأرض . كل واحدة منهن كانت تشتهى أن يولد منها المسيح ، حتى ان العقم حسب فى ذلك الزمان عارا ... ولكن الرب لم يعمل فى أحشاء أية واحدة من كل تلك الآلاف من النساء .

كان لابد من وجود فتاة من نوع معين ، تكون أهلا لان

ياخذ الرب منها جسدا : يسكن في بطنها ، ويتغذى من دماؤها ، ثم يولد منها ويرضع من لبنها ، ويعيش في كنفها سنوات ... لم تكن أية فتاة تصلح لهذا الأمر . كان لابد من واحدة تتميز بصفات خاصة تؤهلها لهذا العمل العظيم ... وكانت العذراء مريم هي هذه الواحدة التي انتظرتها الأجيال الطويلة .

فما هي الصفات التي أهلتها لهذا المجد وهذه الطوبى ؟

كانت أول صفة تشترط فيها هي التواضع . فلماذا ؟
ما هي أهمية التواضع بالنسبة للدور العظيم الذي عهد به الى العذراء ؟

ان المسيح الهنا المتواضع ، كان لابد أن يختار فتاة متواضعة لكي يولد منها . ليس فقط من أجل جمال فضيلة التواضع ، وإنما لأمر آخر أخطر من هذا بكثير ...

ذلك لأن الفتاة المتواضعة هي الوحيدة التي تستطيع ان تحتمل هذا المجد العظيم الذي به تدعى « والدة الاله » ...

حقا ، من هي التي تستطيع ان تحتمل هذا اللقب العظيم الذي لم يطلق على امرأة أخرى في الوجود ؟ من تحتمل الحمل الالهى المقدس ، وتعلم أن الروح القدس يحل عليها ، وقوة العلي تظللها ، وتعلم أن القدوس المولود منها يدعى ابن الله ؟ من تحتمل هذا ؟ ومن يمكنها أن تحتمل أيضا ظهورات الملائكة ، وكثرة الرؤى والمعجزات والأعاجيب التي تصحب

وجود الله الكلمة فيها ومعها ؛ ... هل أية فتاة أو امرأة
يمكنها أن تحتمل كل هذا المجد ، وكل ما يقابلها من تطويب
ومديح ١٩

ان لم تكن فتاة متضعة ومنسحقة النفس من الداخل ،
فان كل تلك الكرامة لابد ان تهزها هزا وتتعبها . لذلك كان
لابد من فتاة لها من عمق الاتضاع ما يعادل علو تلك الكرامة.
وهنا يظهر سمو العذراء .

في العالم نساء كثيرات لا يحتملن شيئا من المجد العالمى
مهما كان تافها ، فكم بالحرى المجد الالهى أو المجد الروحى...
امرأة ان ظهرت نتيجة المدرسة . وكان ابنها أول فرقة ،
لا يمكن أن تحتمل المرححة ، ويظل يدور على البيوت ، ونقول
فى كل زيارة ولكل أحد « ابنى أول فرقة » ... امرأة أخرى
ان صار ابنها طبيبا ، أو حتى دخل كلية الطب، مجرد دخول،
تصر على أن يسميها الناس « أم الدكتور » . وامرأة أخرى
ان سافر ابنها الى الخارج فى مهمة ، تحاول ان تخلق مناسبة
أو غير مناسبة لكى يعلن على الناس ان ابنها سافر فى بعثة ...!
ماذا يحدث اذن لو ان ابن واحدة من هؤلاء كان هو الله ،
حاشا ... لا شك انها تجنى ، ولا تحتمل ... لهذا كان لابد
أن يختار الله فتاة متواضعة تحتمل كل تلك الكرامة ...

هذا الأمر واضح فى تسبيحة العذراء اذ تقول « تعظم
نفسى السرب . وتبتهج روحى بالله مخلصى ... لأنه نظر الى

اتضاع أمته « (أو ١ : ٤٨) • نظر الى اتضاع أمته ، الى مدلتها وعوزها ويتمها وفقرها ، ولم يحتر فتاة أخرى جليلة العدر ، عظيمة في نظر الناس • بل على العكس « انزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين » •

نلاحظ هنا انها قالت « امته » أي عبده وخادمته • ونفس التعبير قالته للهلاك « هوذا أنا أمة الرب » (أو ١ : ٣٨) • قالت « امته » وهي « امه » ...

ان البشارة العجيبة لم ترفع قلب العذراء ، بل طلت كما هي في السحافها • لم ترتفع اذ اختيرت دون كل نساء العالم في جميع لأحيال ، لهذا المجد وهذه الطوبى • وانما بقيت كما هي في اتضاعها ، كان شيئاً لم يحدث • ولما سمعت ان اليصابات حبلى في شيخوختها ، أسرع لتضع نفسها في خدمتها •

مقابلة العذراء لليصابات

سمعت العذراء القديسة من الملاك أن اليصابات حبلى في شيخوختها ، وأنها في الشهر السادس ، فأدركت انها ولا شك محتاجة الى خدمة • ولم تستكف من الذهاب اليها والوقوف الى جوارها لخدمتها •

لم تقل في نفسها « كيف أذهب لخدمة هذه العجوز ، وأنا الممتلئة نعمة ، أنا المختارة من بين نساء العالم كله ،

أما المباركة في النساء ، أنا التي أحمل في أحشائي الله
الكلمة ... ! ، بل أسرع ، وصعدت الجبال وهي حامل ،
وذهبت إليها في اتضاع . وشعرت اليصابات باتضاع العذراء
في هذه الزيارة الكريمة . فقالت لها : من أين لي هذا ، أن
تأتي أم ربي الى ، (لو ١ : ٤٣) .

هذه الزيارة تعطينا فكرة سامية عن مقابلات القديسين
وعن طابع الزيارات المقدسة : زيارة عجيبة يعمل فيها الروح
القدس ، كلها كلام روحى ، وتسبيح لله . لم يتكلم فيها
أحد كلاما خارجا أو كلاما زائدا ، بل كله للبنيان . وزيارة
فيها كل واحد يتضع للآخر : العذراء تتضع وتأتي لخدمة
اليصابات ، واليصابات تقبل في اتضاع للعذراء ، من أين
لي هذا أو تأتي أم ربي الى ، ...

وكانت زيارة تعطى فكرة عن مكانة العذراء العجيبة عند الله
... إذ أنه بمجرد كلمة السلام التي ألقتها مريم العذراء
الى اليصابات ، امتلأت اليصابات من الروح القدس ،
وتنبأت ، وارتكض الجنين بابتهاج في بطنها . انظروا ماذا
يقول الكتاب : فلما سمعت اليصابات سلام مريم ، ارتكض
الجنين في بطنها ، وامتلأت اليصابات من الروح القدس ،
(لو ١ : ٤١) . واعترفت اليصابات بهذا فقالت للعذراء
« هوذا حين صار صوت سلامك في اذنى ، ارتكض الجنين
بابتهاج في بطنى » .

صدقونى اننى وقعت مندهلا أمام هذه العبارات العجيبة !...

يا هذه الموهبة العظيمة التي للعذراء ؟! مجرد أن يد
 في اذن اليصابات ، تمتلئ ، الصابات من الروح القدس
 هذا عجيب حقا ... تصوروا أن اسمها يدخل الى ؟
 ويقول للموجودين « صباح الخير يا جماعة » ، فيمتلئ
 من الروح القدس ، ويتنبأون !! ... هكذا حدث من العذراء
 وأزانا الرب أنه من أول وهلة للحبل المقدس ، أعطى هذه
 الكرامة العظيمة للمستودع الذي حل فيه ... ويزيد هذه
 الأعجوبة عمقا انها تمت بمجرد السلام : اعنى أن العذراء
 لم تضع يدها على رأس اليصابات ، ولم تقدم عنها صلاة ،
 ولا تشفعت فيها ، ولا باركها بكلمة بركة . ولكن بمجرد أنها
 سلمت عليها حلت كل تلك البركات ...

هل انت كذلك يا اخي : اذا زرت بيتا ، يمتلئ اهل هذا
 انبيت من الروح القدس وتحصل عليهم المواهب ...
 ويتبارك البيت بوجودك ؟ هل يكون وجودك بركة لهذا البيت ،
 مثلما كان وجود العذراء في بيت اليصابات ، ومثلما كان
 ايليا في بيت الأرملة ، واليشع في علية الشونمية . ليتك
 تكون كذلك ... أعود بك مرة أخرى لنتابع تأملاتنا في زيارة
 مريم لاليصابات :

نلاحظ في هذه الزيارة ، أن روح الاعلان والتكشف بدأ
 يعمل في القديسة اليصابات ... رفع الله عنها الحجاب
 وبدأت ترى المحبتات والمحجبات ... ما دلالة ذلك ؟ سنرى
 الآن :

قالت الیصابات لمريم « من أين لی هذا ، أن تأتي أم ربی ال . » كيف عرفت أن هذه هي « أم ربها » ؟ كيف عرفت أن الرب قد حل فيها ؟ أليس حقا أن القديسة الیصابات قد أدركت ما لم يستطع إدراکه أريوس ونسطور بعد مئات السنين على الرغم من مكاتهما العلمية والکهنوتية ؟! بل من أين لالیصابات أن تعرف بعجل العذراء حتى نقول « ومباركة هي ثمرة بطبك » ؟! ومن أين لها أن تعلم بأن العذراء « قد آمنت بما قيل لها من قبل الرب » ؟!

كيف اتیح لها أن تعرف ما قاله الملاك للعذراء ،

والعذراء لم تكن قد أخبرتها بعد بشيء . . . ؟! حقا ان « سر الرب لحائفيه » كما يقول الكتاب (مز ٢٥ : ١٤) . انها لم تعرف فقط « ما قيل لها من قبل الرب » وإيمانها به ، وإنما هي أيضا حيت العذراء بنفس تحية الملاك لها ، بنفس العبارة التي قالها لها الملاك « مباركة أنت في النساء » (لو ١ : ٢٨ ، ٤٢) . . . هذا عجيب . . .

وأمام عظمة العذراء ، أو بالحري أمام عظمة ابنها ،

تصاغرت الیصابات وتضائلت، ونست ما قيل عن عظمة ابنها... لقد قيل عن ابنها انه « يكون عظيما أمام الرب » وانه « يرد كثيرين إلى الرب الههم » وانه « يتقدم أمامه بروح ايليا وقوته » وانه « يهيئ للرب شعبا مستعدا » وكثيرون سيفرحون بولادته . . ولكن كل هذا تضائل أمام ما قيل للعذراء من قبل الرب . . . نسبت الیصابات كل عظمة ابنها

وهي واقعة أمام أم ربها • وكما أن يوحنا اختفى لكي يظهر
المسيح ، كذلك اخفيت عظمته وهو جنين ، أمام عظمة الجنين
الالهى • وعلى رأى الشاعر « فى طلعة الشمس من ذا يبصر
الشهبا » ؟

مكثت العذراء ثلاثة أشهر عند اليصابات ، بقيت معها
طوال شهور الحمل الأخيرة حتى وضعت ••• هذا يظهر لنا
صفة جميلة أخرى وهي **روح الخدمة عند العذراء** • كانت فتاة
خدومة ، تحب خدمة الآخرين وتعب لأجلهم • كانت كابنها
الذى « لم ياب ليخدم ، بل ليخدم وليذل نفسه فدية عن
كثيرين » (مز ١٠ : ٤٥) •

**ومحبتها لخدمة الناس تابعتها باستمرار وكانت سبب
المعجزة الاولى للمسيح فى عرس قانا الجليل • فلما رأت ان
الخمر قد فرغت ، وأصبح الأمر محرجا لأصحاب العرس اذ ليس
لديهم ما يقدمونه للمدعوين ، تحنن قلب العذراء عليهم ،
وتشفعت فيهم لدى ابنها الحبيب حتى يحل لهم الاشكال
ثم قابلت الخدام وقالت لهم « مهما قال لكم فافعلوه » (يو ٢ :
٣ - ٥) • ومن اجلها اجرى المسيح المعجزة وفرح الناس
فى عرسهم •**

سمومكافة العذراء

هذه العذراء المواضعة الخدوم هى التى اخارها الرب
لانسحاق نفسها ، وزياها الشربية التى تمهدا لهذا
الانسحاق •

تربية العذراء وأثرها في سموها :

لم يختار الرب فتاة مدللة قد تربت في القصور وتنعمت بمتع الدنيا ومادياتها • وإنما اختار فتاة يتيمة مسكينة ، مات أبوها وهي في السادسة من عمرها ، وماتت أمها وهي في سن الثامنة • وعاشت العذراء في الهيكل ، إذ كانت نذيرة للرب •

وكان لأثرها للرب قصة : كانت أمها « حنه » عاقرا • فبكت أمام الرب ، وصلت ، ونذرت أن تكون ثمرة بطنها للرب ، أن أعطاها الرب نسلا • وسمع الرب طلبتها وطلبة زوجها « يواقيم » ، الذي كان هو أيضا صائما ومعتكفا ومصليا من أجل هذا الموضوع عينه • وبشرهما الرب بميلاد العذراء • وحبلت حنه وولدت ابنتها القديسة ، فوهبتها للرب ، وتربت في الهيكل •

أن الكنيسة المقدسة وإن كانت تحتفل دائما بأعياد استشهاد القديسين أو نياحتهم ، وليس بميلادهم ، إلا أنها بالنسبة إلى العذراء بالذات ، تحتفل بميلادها ، في عيدين وليس في عيد واحد : تعيد بميلاد العذراء في أول بشنس ، كما تعيد للبشارة بميلادها في ٧ مسرى ، لقد كان ميلاد العذراء هو بدء الأفراح ، لأنه ميلاد المستودع الذي يحل فيه رب المجد ... ولأنه علامة على أن الرب قد بدأ برضى على الأرض ، وأنه قد قرب زمان انقضاءها • أنه مولد العذراء القديسة ابنة الأصوام والصلوات ، وابنة المواعيد أيضا •

ولما أتمت العذراء مدة طفولتها ، أخذتها أمها وسلمتها
لهيكل الرب ، فعاشت فيه ، وتربت وسط التسابيح والمزامير
والصلوات ، ووسط التقدّمات والقرايين والذبائح والبخور .
تربت مع الفتيات المختارات وكان الكل معجبا بها . وأقامت
هكذا حتى الثانية عشرة من عمرها ، حيث نقلت الى بيت
يوسف البار ، ليرعاها ويحفظها . . .

تقديس الكنيسة للعذراء :

انها في نظر الكنيسة أعلى من الملائكة ورؤساء الملائكة .
نذكرها في صلواتنا وألحاننا قبل الثلاثة العظماء المنيرين
مikhail وجبرائيل وروفائيل رؤساء الملائكة . بل اننا نقول
لها في السبحة . . ارتفعت يا مريم فوق الشاروبيم ، وعلوت
يا مريم فوق السارافيم ، . . . هي في نظرنا السماء الثانية
التي استحققت أن تكون عرشا لله الكلمة .

نذكرها في الأجبية وفي القداس وفي كل كتب الكنيسة :
في السنكسار ، وفي الدفنار ، وفي العظماس ، وفي
الإبصلمودية ، وفي كتب المردات والألحان . . . في صلوات
الأجبية ، نذكرها في العظة الثالثة في كل ساعة من ساعات
النهار منشفعين بها . ونذكرها في قانون الإيمان ، اذ نقول
في مقدمه « بعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيها العذراء
العديسة والدة الإله . . . » .

نضع صورتها باستمرار على يمين الخارج من الهيكل ،

(مز ٤٥ : ٩) • ويقدم لها الكاهن البخور عند خروجه من الهيكل وهو يقول « السلام لك أيتها المملثة نعمة ... » . وعلى الجانب نضع صورة المسيح مع يوحنا المعمدان ، متذكّرين قول المرتل « قامت الملكة عن يمينك أيها الملك ... »

نذكرها في صلاة البركة ، أولا وآخرها . نذكرها قبل جميع القديسين • فنبدأ البركة « بالصلوات والتضرعات والابتهالات التي ترفعها عنا كل حين والدة الإله القديسة الطاهرة مريم » • وبعد أن نذكر أسماء الملائكة والرسل والأنبياء والشهداء وجميع القديسين ، نختم بها البركة فنقول « وبركة السيدة العذراء أولا وآخرها » • وهكذا نذكرها في صلاة المجمع في القداس قبل جميع القديسين •

ونعيد لها - غير عيدها الشهري - سبعة أعياد رئيسية في السنة : عيد البشارة بميلادها ، وعيد ميلادها ، وعيد دخولها الهيكل ، وعيد دخولها مع الرب إلى أرض مصر ، وعيد نياحتها ، وعيد صعود جسدها إلى السماء ، وعيد بناء أول كنيسة على اسمها • أما عيدها الشهري فهو في اليوم الحادي والعشرين من كل شهر قبطي • يضاف إلى هذا أبا نصرم لله صرما على اسمها هو ١٥ يوما يهتم الناس به اهتماما كبيرا ...

وما أكثر الكنائس والأديرة التي بنيت على اسم العذراء : غالبية الكنائس في مصر على أسماء العذراء ، أو مارجرجس ، أو الملك ميخائيل • لا نستطيع أن نحصى بالتدقيق الكنائس

التي تحمل اسمها ، أما من جهة الأديرة : فالجوار دير
العدراء للراهبات بحارة رويلة ، توجد على اسمها ثلاثة أديرة
للرهبان : دير البراموس ، ودير السريان بوادي النطرون ،
ودير المحرق بالصعيد . . . ان العدراء قد نالت شهرة
كبيرة في مصر ، وبخاصة لأنها زارت مصر مع ابنها الحبيب ،
ولها في كل مكان ذكريات خاصة بزيارتها أو خاصة
بمعجزاتها .

على ان السبب الأول لشهرة العدراء لم يكن هو معجزاتها،
وانما قبل كل شيء فضائلها . . . وسنحاول أن ننأمل بعض
هذه الفضائل اذ لا يمكننا أن نلم بجميعها :

تكلّمنا في أول هذا الفصل عن اتضاع العدراء . ونود
الآن أن نتحدث عن صمتها وتأملها .

صمت العدراء وتأملها

انه صمت ممزوح بالاتضاع والتأمل .
لقد رأت هذه القديسة ما لم يره أحد . رأت الكثير من
المعجزات والرؤى . ومع ذلك لم تتكلم ، ولم تفتخر ، لا قليلا
ولا كثيرا . بل يلخص الكتاب موقفها الوفور العجيب ،
وتصرفها الروحي العميق ، في عبارة واحدة هي :

« وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام ، متفكرة
به في قلبها » (لو ٢ : ١٩) .

ثرى العذراء ملاكا بشهرها ، وتسمع عن ملاك طهر لذكورها ،
عن ملاك طهر المرحمة مع جمهور من الجسد السمائي من سجن .
ولعل يوسف قد أخبرها بأمر الملائكة الذين طهروا له في
الأحلام . ولكنها لا تحدث عن شيء من هذا ، بل « تحفظ
جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها » . لم تصخر بشيء من
جميع الأعاجيب التي حدثت لها ، بل لعبها جميعها بغلاف من
الصمت يخيل الى انها لم تنكلم الا عندما تحدثت
للانجيليين القديسين عندما كتبوا اناجيلهم .

أعاجيب كثيرة حدثت معها في مصر ، ومع ذلك لم تحدث
عنها مريم ، ولم يذكرها لنا الانجيليون ، بل كانت القديسة
مريم « تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها » . لم
نعرف أعاجيب الرب في مصر الا عن طريق التقليد ، عن
طريق التاريخ . حفظه لنا الذين راوه ، والذين حدثت معهم
المعجزات . أما مريم فظلت صامته

لا شك ان معجزات كثيرة أخرى قد أجراها الرب في فترة
الثلاثين سنة من حياته التي سبقت خدمته . وكان يعيش هذه
الفترة في بيت العذراء . ولا شك ان أعاجيب أخرى رأتها
العذراء في حياة الرب ، في كماله في تصرفاته ، في سيرته
المقدسة ، في علاقته مع الناس . ولكنها صمتت ولم تذكر لنا
شيئا من كل ذلك وكانت تحفظ جميع هذه الأمور متفكرة بها
في قلبها . وصفت هذه الثلاثين سنة من حياة المسيح لغزا

كان السائل بالنسبة اليها أعرق من الحديث والاعلان .

كان التأمل غذاء لروحها ، أما الحديث ففيه تشتيت لتأمل القلب . أو لعلها من عجب ما رآه ، كانت في حالة من الدهش في الروحيات لا تسمح بالكلام ، أو يقف الكلام معها عاجزا عن التعبير . أو لعل العذراء أسكتت فيها ، لينكلم قلبها ، مع الله .

ما أعجب قلب العذراء ، كيف أمكنه أن يتسع لكل ما رآته وسمعته . . . ان قلبها كنز عجيب للروحيات .
ما أجمل قول داود : « خبأت كلامك في قلبي » (مز ١١٨) .

لماذا صمتت العذراء ؟ هل بدافع من التأمل ؟ أم بدافع من الاتضاع ؟ أم لانشغال قلبها بالصلاة الدائمة فما بقي لها وقت للكلام . ومن لذة حديثها مع الله ، لم تجد فرصة للحديث مع الناس . أم أنها صمتت زهدا فيما قد سمعه من مديح الناس ، اذ فنحت فيها ونكلمت ، وكشفت ما في أعماقها من أسرار . . . في الواقع يا أخوتي لست أجد جوابا عن شيء من هذه الأسئلة . كل ما أستطيع أن أعط به هو ان أقول لأمننا القديسة :

ان في صمتك سرا لن يرى قدس أقداسه الا الصامتون

بذكرني صمت العذراء الى حد ما بصمت آباءنا السواح :
لا شك ان أولئك القديسين السواح قد رأوا في حياتهم الشيء الكثير من عمل الله معهم ، وما وعبه لهم من بركات ، وما كسبته لهم من أغانيات . ومع كل ذلك طبت حياتهم مغلقة لصمت . ولو تحدثوا عن خبرات يوم واحد ، أو روحيات

يوم واحد من حياتهم ، لأميلات مكباتنا بالمجلدات ، لكنهم
رأوا حياتهم مع الله لونا من ألوان المتعة الروحية ، ولم يحبوا
أن يقطعوا تلك المتعة بالحديث ... هكذا العذراء .

ان العذراء الصائمة المتأمل ، هي درس عميق لنا . .

انه درس تقدمه لنا هذه القديسة العظيمة التي تربت في
الهيكل ، وعاشت طمولتها وشبابها في حياة الصلاة . وعندما
اخيارها الرب لخدمته ، كانت ممثلة من الروح ، على الرغم
من صغر سنها ...

لينا مثلها ، نأمل كثيرا ، ونسعد قليلا . لينا نقضي
الوقت في التأمل والصلاة ، بدلا من الكلام . ان القديسين
الذين اتقنوا الصمت - ومنهم العذراء - صمتوا مع أن كلامهم
كلام منفعة . ونحن كثيرا ما نتكلم ، ولا منفعة من كلامنا ،
بل قد يعثر وقد يضر . كم هو الأحرى بنا - في وقت
الكلام غير النافع - أن نضع أمامنا بصيحة أبواب الصديق
حينما قال « ليتكم تصمتون صمما ، فيكون ذلك لكم حكمة »
(اى ١٣ : ٥) . ما أجمل أن نتعلم من هذه الطفلة القديسة
الوقورة التي بصرفت هكذا في عمق الروح ، وهي في حوالى
الرابعة عشرة من عمرها ...

**ان مريم العذراء قد عوضت سمعة حواء . اقامت توازنا
لسمعة المرأة في العالم . انها ارجعت للمرأة الكرامة التي
فقدتها . لولاها لكان جسد المرأة عموما يعيش في وصمة عار .
أما بسبب العذراء فقد ارجعت قيمة المرأة . وكما أنه بسبب**

سقوط المرأة قد دخلت الخطية الى البشر جميعا ، كذلك بامرأة
أخرى هي العذراء القديسة أسرق نور المسيح على العالم .
وهكذا وجدنا في العهد الجديد كرامة واضحة للمرأة . . .

نساء كبيرات كن يخدمن السيد المسيح . وفى ذلك نجد
أن لوقا البشير بعد أن ذكر أسماء مريم المجدلية ، ويونا ،
وسوسنة ، قال : « وأخر كبيرات كن يخدمنه من أهوالهن »
(لو ٨ : ٣) . وقد ذكر الكتاب اسمى مريم ومرثا أختى
لعازر ، وقال فى ذلك : « وكان يسوع يحب مرثا واختها ولعازر »
(يو ١١ : ٥) . وقد مدح السيد المسيح المرأة الكنعانية ،
وقال لها « يا امرأة ، عظيم هو إيمانك » (متى ١٥ : ٢٨) .
ودافع عن المرأة التى ضبطت فى الخطية ، وأظهر أنها لم

نكن أشر من الرجال الذين ضبطوها . ودافع عن المرأة التى
بللت قدميه بدموعها ، وشرح للمريسي الذى لامها فى قلبه
كيف أنها أفضل منه (لو ٧) . ودافع الرب أيضا عن المرأة
التي سكبت الطيب على رأسه . وقال لتلاميذه : « لماذا تزعجون
المرأة فأنها قد عملت بى عملا حسنا . . . الحق أقول لكم
حيثما يكرز بهذا الانجيل فى كل العالم ، يخبر بما فعلته
هذه تذكارا لها » (متى ٢٦ : ١٣) .

وحول الصليب نجد النساء يتبعن الرب فى الوقت الذى
هرب فيه تلاميذه . وفى هذا يقول القديس متى الانجيلي
« وكانت هناك نساء كبيرات ينظرون من بعيد ، وهى كن قد
تبعن المسيح من الجليل يخدمنه . وبينهن مريم المجدلية ،

ومريم أم يعقوب وهسي، وأم ابني زبدي، (متى ٢٧ : ٥٥ -
 ٥٦) . ونحت الصليب كانت عابدة الوفوف من النساء .
 وفي ذلك يقول روحنا الحبيب التلميذ الوحيد الذي بيع المسيح
 الى الصليب . وكن وامعات عند صليب يسوع : أمه ، وأخت
 أمه مريم زوجة كلوبا ، ومريم المجدلية ، (يو ١٩ : ٢٥) .
 ويذكر لنا الكتاب كيف ذهبت النسوة مبكرات الى القبر .
 وكيف ان المسيح في قيامته ظهر اولاً لمريم المجدلية
 (مر ١٦ : ٩) . وكيف أنه كنت هذه المرأة المجدلية مع
 مريم الأخرى أن تذهبا لتبشير تلاميذه (متى ٢٨ : ١٠) .
 وكيف عاد فكنت المجدلية بهذه المهمة مرة أخرى (يو ٢٠ : ١٧)
 وهكذا عرف تلاميذ المسيح بشرى القيامة أولاً من المرأة .

وما أكثر النساء اللاتي ساعدن الرسل في خدمتهم
 وكرازتهم . وما أكثر أسماء النساء اللاتي ذكرهن القديس
 بولس في رسائله . وفي عليّة صهيون كان التلاميذ يصلون
 ومعهم النساء (أع ١ : ١٤) . وأول كنيسة في العالم كانت
 بيت امرأة هي مريم أم القديس مرقس حيث كان التلاميذ
 يصلون (أع ١٢ : ١٢) .



الفصل الرابع

دروس من حياة المعلمين

أَعْظَمُ مَنْ وَلَدَتْهُ النِّسَاءُ

كثيرون شهد لهم الناس بالعظمة ، وكانت شهادات زائفة ، أو خاطئة ، أو جاهلة ، أو متملة • أما يوحنا المعمدان فان الذى شهد له بالعظمة هو الله وملاكه • قال عنه ملاك الرب الذى بشر ميلاده «ويكون عظيما أمام الرب» (لوقا : ١٥) .

وهكذا لصقت العظمة بيوحنا قبل ان يولد ، بشهادة الرب •

أعمال عظيمة قد قيلت عن يوحنا : منها أنه « يرد كثيرين الى الرب الهم » « يرد العصاة الى فكر الأبرار » « يهيب » للرب شعبا مستعدا » « يهيب » الطريق قدام الرب » يتقدم أمامه بروح ايليا وقوته » • وفى كل ذلك نسأل الملاك الذى بشر بميلاده عن سر هذه العظمة العجيبة ، فيجيبنا بقوله : انه « **من بطن أمه يمتلئ بالروح القدس** » (لوقا : ١٥)

حقا ، هذه هى سر عظمة يوحنا • سمعنا فى الكتاب المقدس أن الروح القدس حل على كثيرين : حل روح الرب على شمشون وعلى شاول وعلى داود وعلى كثير من الأنبياء • ولكن لم نسمع مطلقا عن أحد منهم أنه «من بطن أمه» قد امتلأ من الروح القدس • هذا الأمر قد اختص به يوحنا المعمدان ، لم يسبقه اليه أحد •

ومن نتائج هذا الامتلاء انه ارتكض بابتهاج فى بطن أمه
تحيةة للجنين الالهى وهو فى بطن العذراء . . . لقد أوتى
المعرفة التى يميز بها الرب وهو ما يزال جنينا فى الشهر
السادس فى بطن القديسة اليصابات . بل أنه أيضا أوتى
روح العبادة وهو فى بطن أمه . أمر لم نسمعه عن أحد من
الأنبياء أو القديسين من قبل . . . لقد عرف المسيح ، وآمن
به ، وسجد له فى البطن ، قبل أن يولد المسيح . . .

قالت عنه أمه اليصابات « ارتكض الجنين بابتهاج فى
بطنى » . لقد ابتهج بأرب ، فرح به . فرح بالخلص الذى كان
مزمعا أن يأتى الى العالم من بطن العذراء ! . . .
عجيب مثل هذا الابتهاج من جنين لا يدرك ولا يعى !
ولكن يزول العجب اذ كان هذا الجنين ممثلا من الروح
القدس « والروح بفحص كل شئ حتى أعماق الله »
(١ كو ٢ : ١٠) . هو بالروح تحرك فى بطن أمه . وهو
بالروح آمن وابتهج . . . حقا انه كان عظيما أمام الرب ! . . .

وعظمة يوحنا لم يشهد بها ملاك الرب فقط عندما بشر
زكريا ، انما أكبر من هذا شهد بها رب المجد ذاته ولم يقل
عن يوحنا انه عظيم فحسب ، وانما قال :

« الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من
يوحنا المعمدان » (متى ١١ : ١١) .

الرب نعمة يشهد عنه انه أعظم من ولده النساء . هل
هناك شهادة حصل عليها انسان فى طول الأرض وعرضها ،

أسمى وأعلى من هذه الشهادة؟! لا توجد . يضيف إليها الكتاب لمبا آخر أطلق على يوحنا ، فقيلاً انه « ملاك » ، أو هو الملاك الذي يهيب الطريق قدام المسيح (مر ١ : ٢) . وشهد بهذا الملقب المسيح نفسه (متى ١١ : ١٠) .

بل شهد المسيح أيضا عن يوحنا انه « افضل من نبي »
... فقال للجموع « ماذا خرجتم الى البرية لتنظروا : أنبيا ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي ، (متى ١١ : ٩) ... كان يوحنا ملاكا ، وكان نبيا . وكان أيضا كاهنا ، من بني هارون ، ابنا إزكريا الكاهن . وكان صاحب المعمودية العظيم .

ولعل أعظم ما في حياة يوحنا انه عمد المسيح له المجد...
أنى اليه السيد المسيح ليعتمد منه كباني الساس ... ومن اجل الطاعة قام يوحنا بعماد المسيح . واستحق لذلك أن يرى الروح القدس بهيئة حمامة ، وأن يسمع صوت الآب قائلا « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » (متى ٣ : ١٦ ، ١٧) وهكذا تسمع بالثالوث الأقدس ، روحا وحسا ...

وتظهر عظمة يوحنا المعمدان في انه تم عمله العظيم في مدة قصيرة ، لعلها ستة أشهر أو أزيد قليلا .

هذه السنة أشهر هي الفرق بين عمره وعمر المسيح ، وكل منهما بدأ عمله في نحر السلاطين من عصره . وخدم يوحنا هذه السنة أشهر . ولما ظهر المسيح بدأ يحسمي هو . وفي هذه المدة الوجيزة استطاع يوحنا أن يهدي كثيرين الى الموبة،

وأن يشهد شهادة قوية للرب ، وأن يمهّد الطريق أمام المسيح
واقنع العالم كله بأن قوة الخدمة ليست في طولها ، وإنما في
عمقها ، في مدى فاعليتها وتأثيرها ...

ليس عجيباً أن كثيراً من الخدام النافعين لا يتركهم الرب
بخدمون طويلاً . يكفي أنهم قدموا عينة للخدمة ، وعينة
للبر . قدموا شهادة للرب ، وقدموا مثالا يحتذى . واكتفى
الله بما فعلوه ، وأطلقهم بسلام ... تماماً مثل تلميذ نابغ
جلس أمام أساتذته في امتحان شفهي . فسألوه سؤالاً
عميقاً ، فأجاب إجابة ممتازة ، ودعوه يمضي ، غير محتاجين
أن يسألوه في المقرر كله . يكفي ما أظهره من ذكاء وفهم ...
كذلك الله لا يهتم كمية الخدمة بقدر ما يهتم نوعها . وقد
قدم يوحنا مثالا ممتازا للخدمة الجادة ، ومثالا ممتازا
للروحيات العميقة ، تنسم منه الرب رائحة الرضى ، وصرفه
بسلام ...

**وتبرز عظمة يوحنا ، في أنه عاش بكماله ، على الرغم من
أن عصره كان مظلماً ...**

كان عصرًا شريرًا ، وكان أشد ما فيه قاذرة الروحانيون
من أمثال الكهنة ورؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والفريسيين
والصدوقيين ... وقد قام فيه من قبل بعض المعلمين الكذبة
مثل ثوداس ويهوذا الجليلي اللذين تكلم عنهما عمالائيل
(أع ٥) ، وقد أزعجا كثيرين ... وكان عصرًا يمتاز بالحرفية
والبعد عن الروح ، ويتميز رجال الدين فيه بالرياء والكبرياء

وعلى الرغم من وجود أضواء بسيطة مثل حنة النبية وسمعان
الشيخ وذكريا الكاهن وامثالهم ، الا أن العصر في مجموعه
كان فاسدا . يكفى أن الرب وصفه بأنه «جيل فاسق وشريد»
(متى ١٢ : ٣٩) .

**ولكن يوحنا لم يتاذ من فساد جيله ، بل على العكس كان
بركة لجيله وسبب هداية وتوبة ...**

**ومن عظمة يوحنا انه كان ابن الجبال ، كان رجل برية ،
ورجل زهد ونسك . وكل ذلك ترك اثره في حياته وفي
صفاته .**

طارده الموت من صغره ، عندما قتل هيرودس الأطفال .
فأخذوه الى البرية . وعاش في البرارى طوال عمره « يشمو
ويتهوى بالروح » (لو ١ : ٨٠) . عاش ناسكا « خمرأ
ومسكرا لا يشرب » (لو ١ : ١٥) . « يلبس وبر الابل ،
ومنطقة من جلد على حقويه » . ويأكل جرادا وعسلا برياً .
(مر ١ : ٦) . وهكذا تدرب في البرية على حياة الزهد .
وصدق مار اسحق حينما قال « ان مجرد نظر القفر يميت من
القلب الحركات العالمة » .

**وفي البرية تعلم الصلاة والتأمل ، وتعلم الشجاعة
والصلابة ، وتعلم الايمان ايضا . أعد الله في مدرسة البرية،
كما أعد العذراء في الهيكل . فنشأ شجاعا لا يهاب انسانا ،
يصلح أن يكون صاحب رسالة . وكانت رسالته هي اعداد
الناس للتوبة ...**

ومن عظمة يوحنا المعمدان ، أنه كان شجاعا جريئاً ،
يقول الحق بكل قوة، مهما كانت النتائج. حقا ان الزاهد لا يخاف.
أخطأ هيرودس الملك . فمن كان يجروء أن يوبخه
أو يواجهه بكلمة الحق ؟ من الذى يعلق الجرس فى عنق القط؟!
ليس غير يوحنا المعمدان . هو الوحيد الذى استطاع أن يقول
لهيرودس « لا يحل لك ... »

القاء هيرودس فى السجن فلم يهتم . انما يخاف السجن
انسان يحب متع العالم وملأذه، ويخشى أن يحرمه السجن منها.
أما انسان ناسك كيوحنا ، زهد كل ملاذ العالم ، وتركها
بارادته ، ففى أى شيء يتعبه السجن ؟!

ربما يقال له : ستتعطل خدمتك بالسجن . لا ترشد .
ولا تعمد ، ولا تهدي الناس الى التوبة . أما يوحنا فلا يهتم
ويقول : ان كان هذا الباب مفتوحا من الله ، فلا يستطيع
أحد أن يغلقه . ان كان الله يريد يوحنا أن يبشر ، فسيبشر ،
ولا يستطيع أحد فى الوجود أن يمنعه . وان كان الله لا يريد،
فلتكن مشيئته . بهذا المطلق كان يوحنا يشهد للحق .
وليحدث بعد ذلك ما يكون .

وكان ما كان ، وقطعت رأس يوحنا . ولكن هذا الصوت
الصارخ فى البرية ، ظل يدوى فى اذن هيرودس يزعج ضميره
وأفكاره ونومه وصحوه ، ويقول له فى كل وقت « لا يحل
لك ، »

ان صوت يوحنا لم يمت بموت يوحنا . بل ظل مندوبا
ضد أعداء الحق ... وظل هيرودس يخاف يوحنا حتى بعد

موته ... فعندما أحس هيرودس بكَرازة المسيح القوية وبمعجزاته ، قال لعلمانه : هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات ، ولذلك تعمل به القوات ، !! (متى ١٤ : ٢) .

ان يوحنا قد عامل هيرودس الملك كما عامل باقى الناس .

كان يدعو الكل الى التوبة ، سواء فى ذلك الملك أم الجند أم القادة أم أفراد الشعب ... الكل سواء أمام شريعة الله .

الكل فى حاجة الى التوبة . الملك محتاج الى من يوبخه على خطيته ، كما يحتاج الفرد العادى ... لكى يتوب ... وان لم يتب الملك ، فيكفى يوحنا أنه شَهِد للحق وأبه نادى بالتوبة ...

كانت معمودينه هى معمودية التوبة ، ورسالته هى دعوة للتوبة .

ينادى فى الناس « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . وكان شديدا فى دعوته ، يوبخ وينهر ويبكت . وكان الناس يعبلون تبكياته بقلب مفتوح .

ونجح يوحنا فى خدمته . « خرج اليه اورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن » واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم ، (متى ٣ : ٦) .

ولما رأى الجموع قد كثرت حوله ، حول انظارهم منه الى المسيح .

بذل كل جهده لكى يختفى هو ، ويظهر المسيح . ولعل هذه هى أبرز فضائل يوحنا وأقدس أعماله ...

كان يقول لهم : أنا أعمدكم بماء للتوبة . ولكن الذى يأتى بعدى ... سيعمدكم بالروح القدس ونار ، (متى ٣ : ١١)

« أنا عمدتكم بالماء ، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس »
(مر ١ : ٨) • وكما كان يجذبهم الى المعمودية أخرى أفضل
من المعمديته ، كان يجذبهم بالأكثر الى صاحب تلك المعمودية ،
الذى هو أقوى منه وأعلى وأقدم •

كان ينادى فى الناس « يأتى بعدى من هو أقوى منى ،
الذى لست أنا أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه »
(مر ١ : ٧) • يأتى بعدى رجل صار قدامى ، لأنه كان
قبلى • (يو ١ - ٣٠) • لست أنا المسيح ، بل انى مرسل
امامه • (يو ٣ : ٢٨) •

لم يكن تفكير يوحنا منحصرا فى ذاته ، وانما فى المسيح •
لم يكن يبحث عن مجد ذاته ، وانما عن ملكوت المسيح •
كان يدرك تماما أنه ليس هو النور ، وانما ليشهد للنور
(يو ١ : ٨) • اذن فهو مجرد انسان جاء للشهادة ، ليشهد
للنور ، ليؤمن الكل بواسطته • كان يعرف أنه مجرد سابق
امام موكب الملك الآتى ، كل عمله أن يعد الطريق للملك •
واستطاع يوحنا أن يحفظ طقسه ولا يتجاوز حدوده •••

كانت الذاتية ميتة عند يوحنا • لم يكن لذاته وجود فى
خدمته • كان المسيح بالنسبة اليه هو الكل فى الكل • ليته
يكون درسا للخدام الذين يبنون ذواتهم على حساب الخدمة ،
او يتخلون الخدمة مجرد مجال لظهور ذواتهم !!

أروع كلمة تعبر عن خدمة يوحنا هى قوله عن المسيح
« ينبغى أن ذاك يزيد ، وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) •
هذه العبارة هى سر نجاح خدمته ، وهى المبدأ الذى سار

عليه فى كل خدمته ... لذلك عندما بدأت كرازة المسيح وأخذت تكتسح خدمة يوحنا ، ابتهج يوحنا وفرح . وقال « اذن فرحى هذا قد كمل » من له العروس فهو العريس ... الذى يأتى من فوق هو فوق الجميع ... الذى يؤمن بالابن له حياة أبدية ، والذى لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يوحنا : ٢٦ - ٣٦) .

حالما تقابل يوحنا مع المسيح قال له « تفضل هذه العروس انها لك . انا تعلمتها لمجرد أن أوصلها لك . حقا انه من واجبى أن أوصلها لك بطيعة ومزينة ، وأنادى لها أولا بالتوبة ... وأقول لها : أيتها العروس . هوذا العريس مقبل ، فاستعدى للقاءه . » « اسمعى يا ابنتى ، وانظرى وأملى سمعك ، وانسى شعبك وبيت أبيك . لأن الرب قد اشتهى حسنك . لأنه هو ربك ، وله تسجدين » (مز ٤٥ : ١٠ - ١١) . حالما جاء المسيح ، سلمه العروس ، وانسحب من الميدان ... وكصديق للعريس وقف ينظر ويفرح ...

على أن اعظم ما فى حياة يوحنا كان هو عماده للمسيح . وفى العماد نرى موقفين عظيمين فى الاتضاع ، للرب ويوحنا . يوحنا يقول للرب « انا محتاج أن اعتمد منك ، ... أنا أيضا خاطيء ، أحتاج الى معمودية التوبة معترقا بخطاياى ، كهؤلاء الباقين ... وأنا محتاج أن اعتمد منك أنت ... اننى أمام هؤلاء الناس معلم ، أما أمامك أنت ، فأنا تلميذ بسيط . أمام الناس أنا نبي وملاك ، ولكن أمامك أنا عبد وتراب .

هم يعتمدون منى ، وأنا اعتمد منك ... حقا اننى من سبط لاوى ومن بنى هارون ، كاهن ابن كاهن ، وانت حسب الجسد من سبط يهوذا وليس من سبط الكهنوت . ولكنى لا أنسى أنك مصدر كل سلطة كهنوتية ، أنت معطى الكهنوت ومنشؤه ، أنت كاهن الى الأبد على طقس ملكى صادق كما تنبأ داود فى المزمور (مز ١١٠ : ٤) لذلك أنا محتاج أن أعتمد منك .

ان كل العظمة التى كانت تحيط به ، لم تنسه ضالة ذاته التى شعر بها امام المسيح ... وكأنه يقول : من أنا حتى اعتمد المسيح ؟! كما قالت أمه « من أين لى هذا ان تأتى أم ربى الى » ... أنا مجرد تراب ورماد ، كيف أضع يدي على رأس الرب . خالق هذه اليد ؟!

ان كل الآلاف الذين يأتون اليه ، لم ينسوه حقيقة نفسه . وكل التوبيخات التى يوبخ بها الناس الخطاة ، لم تنسه توبيخا يوجهه الى ذاته ، كشخص - أمام الله - يشعر أنه خاطئ ، ... وهكذا قال للرب « أنا محتاج أن أعتمد منك » . وكانت هذه العبارة تحمل اعترافا ضمنيا ...

نلاحظ أن الرب لم يقل له « كلا ، انك غير محتاج للعماد » بل قال له « اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر » (متى ٣ : ١٥) . « حينئذ سمح له » !!

ونحن نقف منذهلين أمام عبارة « اسمح الآن » وهى تخرج من فم الرب موجهة الى واحدة من عبيده . انه تعبير مؤدب ولطيف ، ليتنا نأخذه تدريبا روحيا لنا ... يقول-

لعبده « اسمع الآن » . أنا احتاج الى سماع منك ، اطلب موافقتك . لست آمرك ، وانما اسمع . ويقول الكتاب « حينئذ سمع له » . ما أعجب هذا . أي شرح لي سيققد هذا الموقف قوته . لذلك ساصمت عنه ...

انه درس في الاتضاع وآداب الحديث ، يقلبه لنا عماد المسيح ، لتعلم ، وتندرب ...



كلما نتأمل في ميلاد السيد المسيح وعماده ،
وما أحاط بهذين الحدثين من أسرار وأعماق ،
يلج على قلوبنا فكر لا نستطيع مقاومته :
أن نضع أمامنا في تخمار تلك التأملات

فاعلية الميلاد في حياتنا

وكلبك فاعلية العماد

سنقرأ في محاضرات هذا الكتيب +
عن دروس روحية في الميلاد والغطاس •
ويبقى علينا أن نحول الدروس إلى حياة

